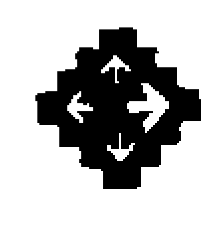

ميشيل دوجاريي
طريق الموعوظين
ترجمة: جان بحوث
إشراف: الأب الدكتور كاميللو باللين

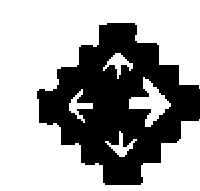
طريق الموعوظين



دار شرقيات للنشر والتوزيع

طرق الموعوظين
ميشيل بوجاريي

الطبعة الأولى ٢٠٠٥



دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨
sharq_ca@yahoo.com

غلاف: هبة حلمي

رقم الإيداع ٩٩٢٠ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولي: ٩- ٩٧٧-٢٨٣-١٦١ ISBN

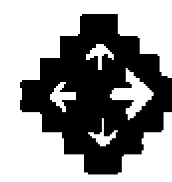
طريق الموعوظين

تاريخ ملخص

للأب ميشيل دوجاريي

ترجمة: السيد جان بحوث

إشراف: الأب د. كاميللو باللين



دار شرقيات للنشر والتوزيع



الفصل الأول

الاختيارات الرئيسية
في
حقبة العهد الجديد

لن نجد في كتب العهد الجديد تنظيم الأعداد للعماد ولكن من المفيد أن نكتشف أن الكنيسة منذ البدء وضعت بعض الشروط لقبول الأسرار وخاصة للعماد.

إن أعمال الرسل تهتم قبل كـــل شـــيء بحيـــاة الـــروح وظهوره في الجماعات الأولى والمواهب الروحية التـــي تجـــذب الناس إلى يسوع المسيح.

ولكننا أيضاً نستطيع أن نلاحظ بعض العلاقات الثابتة في السلوك الرعوي وهي أيضا تحت تأثير الروح عينه.

بعض القواعد في السنوات الأولى

إن القراءةِ المتأنية لأعمال الرسل والرسائل تُظهر لنا أن الكنيسة عملت دائماً بحذر في سبيل قبول أحد في وظيفة كنسية أو في حياة مكرسة.

فكانت تطالب المرشح ببعض الـــصفات وبوقـــت كـــاف لاختباره مما يسمح للحكم على صلاحيته الحقيقية.

وهذا التدقيق الموجود منذ السنوات الأولى سيزداد فيما بعد، ويقنن تقنيناً مفصلاً كما يبدو من مقارنة بين رسائل بولس وأعمال الرسل.

ونلاحظ أيضاً أنه قبل القرار بقبول المرشح فإن المسئول غالباً ما يستشهد بالجماعة.

ومنذ بدء الكنيسة قد تم اختيار الخدام بتعقل.

إن نص اختيار الشمامسة الأوائل يبرز لنا الصفات الحميدة اللازمة في المرشحين وكذلك تدخل الجماعة المسيحية.

فإن الإخوة هم الذين يختارونهم ويشهدون بصلاحيتهم قبل أن يقدموهم للمسئولين الذين يقومون برسامتهم: أعمال الرسل ٦/٢-٦:

"فدعا الرسل الإثنا عشر جماعة التلاميذ وقالوا لهم: "...اختاروا سبعة رجال منكم مشهود لهم بحسن السمعة وممتلئين من الروح القدس والحكمة حتى نكلفهم بهذا العمل، ونواظب نحن على الصلاة والتبشير بكلام الله". فاستحسنت الجماعة كلها رأي الرسل فاختاروا اسطفانوس، وهو رجل ممتلئ من الإيمان والروح القدس، وفيلبس وبروخورس ونيكانورس وتيمون وبرميناس ونيقولاوس وهو أنطاكي صار يهودياً. ثم أحضروهم أمام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الأيدي".

إن اختيار الوُعاظ دقيق أيضاً. فالقديس بولس نفسه الذي بدأ تبشيره بعد هدايته مباشرة (أعمال ٩/٢٠-٢٢) اضطر أن يحوز قبول المسئولين بعد أن قدمه برنابا العضو في الجماعة كضامن لاستمرار هدايته وعماده وحتى سلامة عقيدته (أعمال

٩/٢٦-٢٨). وكذلك لن يضم بولس إليه تيموثاوس إلا بعد شهادة الإخوة لصالحه (أعمال ١٦/٢-٣).

وفي الرسائل الرعوية نجد نفس الجدية ولكن بشروط أكثر دقة فإن الكنيسة التي انتظمت أخذت تقرر بعض القوانين.

يجب أن يتحلى الأسقف بصفات كثيرة محددة (١ تيم ٣/٢-٧) وكذلك الشمامسة يتم اختيارهم وفق مقاييس مفصلة وبعد فترة اختبار يتضح فيها أنهم يحوزون فعلاً كل الفضائل اللازمة: ١ تيم ٣/٨-١٠:

"ويجب أن يكون الشمامسة كذلك من أهل الوقار، لا مخادعين، ولا مدمني خمر ولا طامعين بالمكسب الخسيس. وعليهم أن يحافظوا على سر الإيمان في ضمير طاهر. ويجب أن يتم اختبارهم أولاً، فإذا كانوا بلا لوم أقيموا شمامسة".والأرامل كذلك يكوِّن مجموعة معترف بها من الكنيسة ولكن لا تقبل كعضوات إلا اللواتي كانت سيرتهن حسنة وحسب المقاييس المقررة (١ تيم ٥/٩-١١).

ألا توجد أيضاً في نظام العماد نفس الشروط الأساسية للاختبار والصلاحية؟

منذ أن اقتحم روح العنصرة العالم فإن شعب الله الجديد يحيا في حالة ترقب الآخرة فكل شيء نعمة ويبدو أنه في عهد الروح القدس لا حاجة لمد فترة الاختبار.

وبالرغم من صحة هذا الكلام فلا يصوغ لنا أن ننسى أن الكنيسة حتى في بداية تكوينها لم تمنح العماد بلا روية.

اعتراض ما في كل العصور

كم من مرة أثارت قراءة أعمال الرسل في عقل الرعـــاة شكاً حول ضرورة مراحل إعداد الموعوظين؟

فإذا كان مسيحيو يوم العنصرة والخصي الأثيـــوبي قـــد نالوا العماد بهذه السرعة الفائقة فلماذا هذا التدقيق اليوم؟

ليس الاعتراض جديداً فقد وجد بعض الـــذين يبـــررون التسرع في منح العماد مستندين إلى قصة لوقـــا. وقـــد نقـــضت حجتهم منذ القرون الأولى. فإن هذه النـــصوص لا تـــشكل أيـــة صعوبة بل هي تكشف عن وجود العناصر الأساسية التي نتحدث عنها.

إن القديس أغسطينوس قد جمع حجج الذين يميلون إلـــى العماد بلا إعداد في العهد الجديد حتى يظهر بطلانها.

فبالنسبة إلى المهتدين *الثلاثة آلاف في يوم العنصرة* فإنه يؤكد أن التعليم الأدبي لم يكن منسيا بل أن النص الإنجيلي هـــو نفسه رد على الذين يريدون أن يمنحوا العماد لمرشحين غير أهل له.

القديس أغسطينوس (عن الإيمان والأعمال ١٣)

"ومن جهة أخرى فإن خُطبة القديس بطرس ذاتها كانـــت ستقدم لهم ما ينيرهم لو أولوها قليلاً من العناية. لقد قال: "اصبروا وليعمَّدِ كل منكم" "باسم الرب يسوع المسيح" ويضيف الراوي بعد ذلك توا "ومع عديد من الحجج" كانوا يصممون، انزعوا أنفـــسكم

من هذا الجيل الفاسد" غير أن المسيحيين تقبلوا خطبته بلهفة وفي ذلك اليوم انضم إليهم ثلاثة آلاف نفس".

فكيف لا نفهم أن في هذه "الحجج العديدة الأخرى" التي لم تذكرها الرواية للاختصار حاول بطرس أن يحصل على موافقتهم لينزعوا أنفسهم من هذا الجيل الفاسد؟ وهذه الصيغة ما هي إلا إشارة بسيطة لما كان بطرس يحاول أن يغرس في أذهانهم لو ألح عليهم أكثر. أن جملة "انزعوا أنفسكم من هذا الجيل الفاسد" تعبر عن الفكرة الأساسية. ولكن للوصول إلى هذه النتيجة كان بطرس يلح بشدة ومطولاً".

إن المتطلبات الأساسية لقبول العماد تتضح تماماً من النص الأول لمنح العماد (أعمال ٢/٣٧-٤١) فبعكس الرأي الذي يعتبر أن العماد أعطي في الحال فإننا نرى أن هناك استعدادا نوعاً ما طويلاً وقد يكون الكاتب في وقت متأخر قد أضفى على حياة الأولين أخلاقيات متطورة أكثر من الزمن الذي تم فيه الحدث. فإننا نلاحظ بالأخص خطوات هداية جدية ظهرت في مراحل.

ومن ناحية أخرى يجب أن نشير إلى خطأ في التفسير يحدث كثيراً عند قراءة أعمال ٢/٤١" وفي هذا اليوم انضم إلى التلاميذ ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص" فيظن على الفور أن هذا اليوم هو يوم العنصرة والحال أنه بكل وضوح عبارة"هذا اليوم" هي عبارة أخروية.

فقد ذكروا أن الذين قبلوا الكلمة نالوا العماد "وفي هذا اليوم" معناه في يوم العماد وليس يوم العنصرة وعبارة "في هذا اليوم" يبرز دور العماد الأخروي وهو اليوم الذي فيه يضم الله إلى شعبه أناسا من كل لغة ومن كل جنس.

وبالنسبة إلى *الخصي الحبشي*، لنسمع أولاً ما يقول ترتليانوس:

ترتليانوس (عن المعمودية. ٢/١٨)

"فإذا عمد فيلبس الخصي بمثل هذه السرعة فلنتذكر أن الرب كان شهد بإنعامه عليه بشكل ظاهر وصريح: فالروح هو الذي أمر فيلبس أن يسلك هذا الطريق ومن جهة أخرى فإن الخصي لم يكن عديم النشاط (خاملا) لم يكن طلبه المعمودية نابعا من رغبة مفاجئة إنما كان يذهب إلى الهيكل ليصلي وكان يجتهد في قراءة الكتب المقدسة".

وفي نفس المعنى يوضح أغسطينوس أن نص الأعمال لا يعني إطلاقا أنه في الإمكان منح العماد بدون إعداد بل بالعكس فقد قام فيلبس بكل المراسيم الدينية الأساسية لتعليم الخصي ولم يهمل شيئاً مما يمت إلى الإيمان أو مما يمت إلى السلوك.

القديس أغسطينوس (عن الإيمان والأعمال ١٤/٩)

"وعلى كل فإن سكوت الكتاب المقدس يفسر لنا بالتفصيل حركات فيلبس عندما عمد الخصي. وإذ قال "عمده فيلبس" أراد أن يفهمنا أن جميع الطقوس التي تجاهلتها الرواية للاختصار كانت قد تمت إذ أن التقليد (التقاليد) المستمرة تعرفنا بضرورتها. كذلك إن النص القائل "بشر فيلبس الخصي بالرب يسوع" لا يجيز لنا أن نشك أن التعليم الذي لقن له يضمن أيضا السلوك الأخلاقي الذي يجب أن يتحلى به كل من آمن بالرب يسوع. إن التبشير بالمسيح ليس تصريحا بما يجب أن نؤمن خاصة بالمسيح ولكن ما يجب أن يتقيد به كل من يتهيأ لأن ينضم إلى جسد المسيح".

ويكفينا أن نعيد قراءة نص الأعمال لنرى كيف أن كل الضمانات قد أخذت. وقد أوضح لوقا استعداد طالب العماد: فهو مؤمن إذ أنه جاء حاجاً ويذاكر الكتاب (أعمال ٨/٢٧-٢٨) وأن صفة هذا الاستعداد قد أثبتها شهادة الله ذاته (٨/٢٦و ٢٩).

وأن طالب العماد سعى سعياً طويلاً (٨/٣٤).

وبعد أن استمع إلى دراسة كتابية مركزة على المسيح (٨/٣٥) تسنى له أن يشهر إيمانه الذي فتح له باب العماد.

ومع ذلك فإن كاتب :الأعمال يقدم هذا الحدث على أنه استثناء ويبدو أن نيته كانت إظهار تلقائية وشدة تحويل القلب وخاصة قدرة الروح الذي يتدخل بطريقة عجائبية.

ولا يبدو أن الرسل منحوا العماد بسرعة حتى ولو قاموا بذلك في بعض الأحيان – ومهما كان فإن النصوص تؤكد ضرورة التمييز – ويمكننا أن نؤكد أنه منذ البدء أخذ التنظيم الكنسي يتشكل تشكيلاً دقيقاً، على أساس المتطلبات الأساسية التي نستشعرها منذ بداية الأعمال.

وتشهد بذلك الرسالة إلى العبرانيين حينما تذَّكر المسيحيين بزمن تكوينهم، زمن الغذاء باللبن حيث قبلوا التعليم الأوَّلي عن المسيح، وهي الأساسيات.

وهذا الزمن كان بلا شك جديا حتى لا يحتاج الإنسان إلى الرجوع إليه بعد العماد زمن الغذاء القوي.

متطلبات التقديم للعماد

منذ العنصرة كان الإيمان العنصر الأساسي للاهتداء وهو إيمان مسيحي أي ليس فقط إيمان بالله الخالق (للوثنيين) ولا بإله العهد القديم (لليهود) ولكن بإله يسوع المسيح. وإن أقدم رسالة في العهد الجديد تذكر ذلك بوضوح وهي تشير إلى مسيرة الذين اهتدوا : ١ تسالونيكي ١/٩-١٠:

فهم يخبرون كيف قبلتمونا حين جئنا إليكم، وكيف اهتديتم إلى الله وتركتم الأوثان لتعبدوا الله الحي الحق، منتظرين مجيء ابنه من السماوات، وهو الذي أقامه الله من بين الأموات، يسوع الذي ينجينا من غضب الله الآتي".

إن نص *عمادات العنصرة* يشير إلى فترتين للوصول إلى الإيمان، وهما مرحلتان لهما مدخلان:

١) أولهما إعلان الخبر السار (أعمال ٢/١٤-٢٦) وهذه المرحلة الأولى التي تعلن سر المسيح الذي قام حياً تنتهي إلى مدخل أول: "وعندما سمعوا ذلك انشرح قلبهم وقالوا لبطرس وللرسل ماذا يجب أن نعمل؟" (أعمال ٢/٢٧). وهذا السؤال وهو شبه طقسي، يعود في نظام تبشيري وهو يُظهر الهداية الأولى التي تسمح بالسير نحو العماد. وهذا يدل في الواقع على إيمان حقيقي عميق لأنه مستعد أن ينتقل إلى التنفيذ العملي.

٢) ولكنه ليس ثابتاً تماماً. بل يجب أن يتقوى عن طريق تعليم أكثر عمقاً وقد كبير من حجج أخرى أشار أغسطينوس إلى أهميتها. وبعد المدخل الأول تأتي فترة الكرازات (أعمال ٢/٣٨-٤٠) وفترة الكرازات والتكوين هذه تنتهي إلى

مدخل ثان حيث ينبغي التأكيد من أن المرشحين تمثلوا الرسالة في حياتهم واستوعبوا الكلمة (أعمال ٢/٤١) بمعنى أنهم أطاعوا المسيح عملياً وبدلوا من سلوكهم بالكفاية حتى يعدوا أهلاً للعماد.

فالتقديم للعماد يفترض إذن مرحلتين مميزتين ومدخلتين فإذا كانت هاتان المرحلتان مقتربتين في بداية الكنيسة فإن كاتب النص قد ذكرهما بوضوح: ١) تعليم إنجيلي أولّي يقود إلى فعل إيمان إجمالي ولكنه حقيقي لأنه يُلزم الحياة نفسها ؛ ٢) ثم كرازات أكثر تفصيلاً يجب أن تحوله إلى عماد في واقع الحياة.

نص عماد كرنيليوس (أعمال ١٠/١-١١و١٨) أكثر وضوحاً. وأن خطوطها توحي بمراحل التعميد في الحقبة التي كتبت فيها الأعمال أي في الثلث الأخير من القرن الأول.

وتحتوي الأوصاف المختلفة في القصة فصلاً أولاً تدور حوادثه خارج منزل (١٠/١٧و٢٥). فهذه هي المرحلة الأولى مرحلة السعي لدى المسئول الذي يطرح السؤال التقليدي "ما هو دافعك؟" (١٠/٢١و٢٩) فيجيب المرشح بأنه صدِّيق ويتقي الله (١٠/٢٢و٣٠) ويطلب قبوله في الكرازة (١٠/٢٢و٢٣) وطلبه هذا مسنود بضمانات:

شهادة الملاك (١٠/٤و٣١) والمرسلين الثلاثة (١٠/٢٢) والجماعة اليهودية (١٠/٢٢) وكما سيتضح لنا في بعض النصوص اللاحقة فإن القبول في الكرازات يعنيه الدخول في المنزل (١٠/٢٣و٢٧).

ثم تبدأ الكرازات الحقيقية (١٠/٣٤-٤٣) وهي مركزة على المسيح (١٠/٣٦) الذي تستدل من الأحداث الممتدة من عماد يوحنا إلى ظهورات ما بعد القيامة (١٠/٣٧-٤١) والتي يضمنها

الوعاظ (١٠/٤٢). وهذه الكرازة هدفها خلق إيمان كامل بالمسيح يقود إلى العماد (١٠/٤٣). فإذا كان الإيمان واضحاً تم العماد ولكن لابد قبل ذلك التحقق من صفته. ففي حالة كرنيليوس الخاصة حيث الاخوة الستة لم يجرؤا أن يعطوا رأياً إيجابياً تدخل الله نفسه وشهد (١١/١٢) بإرساله روحه القدوس (١٠/٤٤و٤٨). إذن تشير نصوص الأعمال إلى امتحان مزدوج متضمناً فترة الكرازات ولكن هذه الإشارات تزيد قوة بفضل الملحوظتين الآتيتين: سيكون هذا النظام جاريا بعد مائة سنة وهو قائم حتى في بعض الطقوس اليهودية المعاصرة لكاتب الأعمال.

الطقوس اليهودية والاسينية

إن التيارات الدينية السائدة في حقبة العهد الجديد وخاصة اليهودية والاسينية تلقي أيضاً ضوءاً على بحثنا بالقدر الذي استطاعت بعض عوائدهم أن تؤثر على المنظمات المسيحية في السنوات ٧٠ – ١٠٠ أي في الفترة التي بدأت فيها الكنيسة تنمو فاضطرت أن تأخذ شكلاً أكثر انتظاماً.

الاسينية

إن بعض المؤلفين مثل "أ. بنواه" يظنون أن الاسينية كان لها تأثير حقيقي على المسيحية ولكن أقل على أصولها منها على نموها اللاحق. وقد اعتنق كثير من الاسينيين المسيحية بعد كارثة سنة ٧٠ وقد يكونون أفادوا الكنيسة ببعض المبادئ التنظيمية في

جماعاتهم وهناك تشابه واضح بين مراحل قبول المبتدئ في جماعة قمران والجماعات المسيحية الأولى.

إن الاكتشافات الحديثة بقمران أكدت وأوضحت ما كنا عرفناه من المؤرخ جوزيف فلافيوس حول نظام القبول عندهم الذي يتكون من فترتين.

يخضع المتقدم أولاً لنظام سنة اختبار يتدرب خلالها على أسلوب جديد للحياة ولكن فيما يخص من كان في الخارج : "فالذين يرغبون في الانضمام إلى هذه الطائفة لا يقبلون في الحال بل يمكث الطالب سنة واحدة في اختبار خارج الجماعة يضطر إلى أسلوب حياة الأسينيين" (ولكن فقط فيما يمس نظام الطعام والعمل). وقبوله في المرحلة التالية رهن طريقة سيرته خلال هذا الاختبار.

ثم يقوم بفترة اختبار ثانية لمدة سنتين يستطيع خلالها الاشتراك التدريجي في بعض الطقوس ليس في كلها" وعندما يقدم خلال هذه الفترة المقررة الدليل على اعتداله يُشرك إشراكاً وثيقاً في نظام الاخوة فيحضر اسباغ ماء التطهير ولكنه لا يحضر مائدة الطعام المشترك لأنه بعد أن أظهر مقدرته على قمع حواسه يلزمه بعد ذلك مدة سنتين لاختبار طبعه فإذا نجح في هذا الاختبار يقبل ضمن الجماعة".

وهذه المعلومات توحي لنا بملحوظتين مهمتين :

١) هناك تدرج في القبول يذكرنا بمراحل طريق الموعوظين المسيحي التي نجدها عند هيبوليت بروما.

٢) ثم أن كلاً من هذه المراحل يعتبر فترة تكـوين واختبار. وحتى يقبل الشخص في كل من هاتين المرحلتين يجـب أن يكون قد تم اختباراته بما فيها بالأخص ما يمت إلى الأخـلاق والحياة.

ومستندات قمران تتمم اليوم وصف جوزيف فلافوس وتؤكد أن الانتقال من مرحلة الطلب إلى مرحلة الابتداء يخضع لموافقة الجماعة كلها.

وكل من هاتين السنتين في الابتداء ينتهـي بامتحـان جديـد للمرشح وارتقاؤه إلى الدرجة الأعلى رهن رأي الأعضاء الـذين يبدون حكمهم على صلاحيته.

إن الإخلاص التام في التحول ضروري كشرط مطلق وكمـا سيقول بعد ذلك ترتليانوس وأوريجانوس: إن اسباغ المـاء غيـر مجد للإنسان الذي يرفض أن يعيش حسب شريعة الله. أما بالنسبة إلى المنافقين فإن قانون الجماعة متشد "فلا يدخل هـذا الإنـسان المياه ليصل إلى طهارة الأشخاص القديسين لأن الذي لا يتـوب عن خبثه لن يتطهر لأنه نجس بين كل الذين يخالفون كلام الله"

قبول المهتدين الجدد

إذا كان العماد المسيحي تأثر في بعض عناصره بالعادات اليهودية فسيفيدنا أن نعرف كيف كان الوثنيون يقبلون في جماعة العهد القديم.

كان تعميد المهتدين الجدد قد سار في نهاية القـرن الأول وقد تحررت قوانينه في النصف الأول من القرن الثاني. فطقـسه

يذكر امتحان قبول جاداً جداً وفيه يسأل ثلاثة أحبار لماذا يرغب الوثني في الانضمام إلى الشعب المختار وهم يمتحنون حقيقة رغبته محاولين إثباط عزمه بتذكير الاضطهادات التي احتملها اليهود في العالم:

"إذا تقدم الآن شخص ليصبح منضماً إلينا يجب أن يقال له: <لأي سبب من الأسباب ترغب في الانضمام إلينا؟ ألا تعلم أ، إسرائيل الآن مضطهد ومعذب ومهان ومطحون وأن الآلام ترهقه؟>. فإذا أجاب: <أعلم وأنا لست مستحقا> قبل في الحال".

وإذا أظهر الطالب قوة قراره، قُبلَ للتعليم. وعندما يتعلم جيداً وصايا الله وعواقبها وآفاق العالم الآخر يقبل الختان والعماد بحضرة شاهدين أو ثلاثة.

"فإذا قُبل يختن على الفور. وعندما يتماثل للشفاء فليعمد. حينئذ يجب أن يقف بجانبه رجلان مثقفان وأن يخبراه ببعض الوصايا الصغرى والبعض الكبرى. وعند خروجه بعد تغطيسه يعتبر من جميع الوجوه كإسرائيلي".

وفي بدء الأمر، وكانت الكنيسة قد بقيت مرتبطة بالممارسات اليهودية والجماعة اليهودية (أع ٣-١٠)، تأثرت الكنيسة كثيراً بهذه الطقوس والعادات وليس من الغريب أن نكتشف بعض آثارها.

ويتردد بعض المؤرخين لتأكيد تأثير الطقوس اليهودية على المسيحية ولكننا نرى أن هذا التأثير كان حقيقياً على الأقل في الأوساط اليهودية – المسيحية في الغرب والشرق. ونجد إشارة منها في تسمية الموعوظين "المهتدين إلى المسيح" وتنطبق هذه التسمية في بعض نصوص القرن الثاني وحتى الثالث.

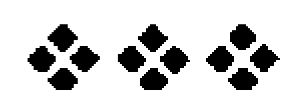
إن الدخول في العهد القديم نعمة مـن الله وأكثـر منـه الدخول إلى العهد الجديد وعلى الإنسان أن يـستجيب لـه بكـل إخلاص.

وهذا البحث السريع في العهد الجديد يظهر لنا أن الكنيسة الأولى لا تقبل لأسرار التنشئة إلا الذين امتحنت إيمانهم واختبرت أسلوب حياتهم على مدى فترة الكرازات.

وهي لا تقبل بدون إعداد أو دليل أو ضمانات.

وهذه المعالم تظهر أن الدخول إلى المسيحية لم يحـدث أبداً معاداة لسلوك الجماعات الدينية واليهودية المعاصرة حتى ولو أن في السنين الأولى فكرة قرب النهاية دفعت المسيحيين الأوائـل إلى الإسراع في المراحل.

لم ينته البحث في العهد الجديد عن معالم التعليم البـدائي التدريجي الذي يتضح أكثر فأكثر بطريقة قبـول المهتـدين إلـى اليهودية أو المبتدئين في شيعة الاسينيين.



الفصل الثاني

تكوينات باطنية لطريق الموعوظين

(القرن الثاني والثالث)

تحيا الكنيسة حتى سنة ٣١٣ حياة عسيرة فهي قليلة العدد وأعضاؤها غارقون في عالم وثني ولم تنل حقوقها السياسية في عضوية الدولة وتذوق الاضطهاد. ولكن صعوبة هذا الحال تمثل متطلبات مستديمة تتحول في النهاية إلى مصدر رعوي ممتاز.

فإن الكنيسة تقوم برسالتها في جو مناسب تماماً لذلك. ففي هذه الفترة يتم تكوين طريق الموعوظين يُبدي أجمل دليل على أصالته.

وسنرسم المراحل الكبرى لهذا النمو من خلال بعض الأمثلة الرئيسية ولكن قبل ذلك يجدر بنا أن نتحدث عن الروح الذي كان يقود هذا المجهود

اهتمام الروح بالأصالة الرعوية

لقد أشرنا إلى العناية الفائقة التي، منذ البداية، كانت تدفع خدام العماد إلى التحقيق من إ خلاص المهتدين، وهذا الاهتمام والأصالة سيقود الكنيسة المبشرة في القرنين الثاني والثالث خلال القيام بوظيفتها كأم.

هذا فلا يسوغ لنا أن ننسى أن قدرة المسيح الخلاصية لن تنمو حيثما، ينعدم الإيمان ولا توجد الظروف المواتية (متى ٥٨/١٣). إن السر لا يمكن أن يمنح لشخص غير مستعد أو لم يغير الإيمان حياته حقيقة.

وهناك شاهدان مميزان من بين الذين أبرزوا ضرورة الفترات الزمنية لتثبيت التحول وتكوين المتحول.

في أفريقيا الشمالية

يرى ترتلِيانوس أن العماد خاتم الإيمان الذي يكون قد استيقظ من قبل وتعمَّق – ويجب أن نفهم معنى التنشئة على أنها دخول مرة واحدة في إيمان واحد ولكن على مراحل متتالية. فبالنسبة للإيمان توصف المسيرة في طريق الموعوظين بهذه الأفعال الثلاثة: الوصول الوصول إلى الإيمان، الدخول في الإيمان، تثبيت الإيمان. وبالتالي يتحقق العماد تدريجياً بدءاً من مخافة الله الأولية حتى الاختبار الاسراري بالله من خلال الإيمان الخالص والتائب.

وذلك ما يشرحه نحو عام ٢٠٠ لموعظي قرطاج الذين يتأخرون في التوبة لأنه ليس لديهم ثقة كافية بالمعمودية.

ترتليانوس (عن التوبة، ٦/١-٢٢)

"يبدأ الرب بالتأكيد من نوع التوبة قبل أن يهبنا هذه المكافأة الرائعة التي هي الحياة الأبدية – ٩ من يجرؤ فعلاً أن

يَرُشك بنقطة أي نوع من المياه أنت يا من توبته غير أكيدة وغير ثابتة – ١٢ يظن البعض أن الله مجبـر أن يهـب حتـى لغيـر المستحقين شيئاً مما وعد به: فهم يحولون كرمه إلي قيـد – ١٦ حمام المعمودية هذا هو ختم الإيمان ولكن الإيمان يأخـذ نقطتـه الإبتدائية (يبدأ) عند صدق التوبة ويجد فيها ضمانا – ١٧ نحن لا نغمس في الماء لنضع نهاية لخطايانا ولكن لأننا وضعنا لها نهاية فنحن مغتسلون في قلبنا. وهذا هو في الحقيقة المعمودية الأولـى لمستمع (الكلمة). ومن ثمَّ مخافة تامة يتعرف عليها الرب وإيمان صحيح وضمير اعتنق التوبة نهائياً – ٢٢ من في رأيك أولى إن لم يكن الأحسن إصلاحا ومن أحسن إصلاحاً إن لم يكن من خاف الله أكثر وبذلك يكون قد تاب حقيقة".

إن موقف المسئولين يجب أن يتفق مع هذا التعلـيم فـإن دورهم هو بالذات أن يبحثوا عن إخلاص المتقدمين حتى يتجنبـوا غش الذين يتقدمون كاذبين – ويلقي ترتليانوس اللوم على الـذين يتخذون الإنجيل حجة لئلا يؤخروا أو يرفضوا طلباً للعماد.

ترتليانوس (عن المعمودية ١/١٨)

"فليعلم من كان العماد مهمـتهم أنـه يجـب ألا يعطـوا باستخفاف "أعط من يطلب" (لوقا ٦–٣٠) يقصد الصدقة، بمعنـى الكلمة. (للمعمودية) يجب أن يؤخذ في الاعتبار هذه الكلمـة: "لا تعطوا الأشياء المقدسة للكلاب ولا تلقوا لآلئكم إلـى الخنـازير" (متى ٧،٦) أيضاً "لا تضعوا أيـديكم باسـتخفاف ولا تـصبحوا شركاء في خطايا الآخرين" (تيموثاوس ٢٢،٥١)".

في فلسطين

العظات التي ألقاها أوريجينوس في القيصرية نحو سنة ٢٤٠ تتجاوب مع المبادئ الرعوية التي أعلنها ترتليانوس. إن العماد هبة من الله ولكنه هبة تفترض في الإنسان، لتكون ذات تأثير، تغييرا حقيقيا في حياته وتحويلاً في الأخلاق في ضوء شريعة المسيح.

اوريجينوس (عظة عن لوقا، ٢١/٤)

"إنكم تريدون أن تُعمَّدوا وأن تستحقوا نعمة الروح فيجب عليكم أولاً أن تتطهروا حسب القانون. يجب أولاً عند سماع كلمة الله أن تقتلعوا رذائلكم المعتادة وأن تهدأوا طباعكم (أخلاقكم) البربرية حتى إذا لبستم الدعة والتواضع أمكنكم تقبل نعمة الروح القدس. هيا يا موعوظون، توبوا لتتقبلوا المعمودية غفرانا لخطاياكم إن من يتقبل المعمودية لمغفرة الخطايا هو من يقلع عن الخطيئة غير أنه إذا تقدم أحد للمعمودية مع استمراره في ارتكاب الخطيئة فلا غفران لخطاياه. لذلك أتوسل إليكم ألا تقبلوا على المعمودية دون أن تدققوا النظر وتمعنوا الفكر. ولكن "اثمروا إذا ثمرا يدل على التوبة" (لوقا ٣،٨) أقضوا وقتا معينا في سلوك حسن واحفظوا أنفسكم أنقياء من كل رذيلة ومن كل نوع قذارة وهكذا إذا تنالون مغفرة خطاياكم عندما تقومون أنتم أيضا باحتقار خطاياكم".

وسنرى عن قريب كيف أن هذه المتطلبات تتحقق. لنتذكر فقط الآن التأكيد القاطع في الشرق وفي الغرب، لضرورة

فترة إعدادية لنوال العماد تسمح للطالب أن يغير فعلاً حياته طبقاً لإيمانه الجديد حتى لا يصبح منح العماد تمثيلية.

اوريجينوس (عظة عن حزقيال ٦/٥)

"انتبهوا جيداً أيها الموعوظين استمعوا واستفيدوا مما أقول لتهيئوا أنفسكم طالما أنكم لم تتعمَّدوا بعد. هلموا إلى النبع اغتسلوا للخلاص. لا تكتفوا بالاغتسال كبعض الذين اغتسلوا ولم يغتسلوا لأجل الخلاص الذين قبلوا الماء ولم يقبلوا الروح القدس بينما الذين يغتسلون لأجل الخلاص يقبلون الماء والروح القدس معاً".

إذن على الضوء اللاهوتي الصادر من الرباط الأساسي بين الإيمان والسر نستطيع الآن أن ندرس التطور الرعوي لطريق الموعوظين في القرنين الثاني والثالث في الكنائس المختلفة من العالم حول البحر الأبيض المتوسط.

في روما نحو سنة ١٥٠

ولد سنة ١٨٠ ما اعتدنا أن ندعوه اليوم "طريق الموعوظين" وفي الواقع لم تكن هيئة تنظيمية بل أسلوباً في المعاملة انتشر استعماله بسرعة فتبنته الكنيسة على أنها الوسيلة المثلى لإعداد التائبين للعماد.

في نهاية القرن الأول بسوريا حسب الديداكيه كان القبول للمسيحية يفترض بعض التعليم الديني وفي سنة ١٤٠ بروما في

فترة لم يكن لفظ الموعوظ مستعملاً يشهد "راعي هرماس" بأن هناك مسيرة حقيقية لمن يستعد للأسرار.

ففي رؤيته الثالثة يرى هرماس الكنيسة على هيئة برج أثناء بنائه على المياه بحجارة مربعة لامعة. ولاحظ فئة من الحجارة تسقط بجانب الماء ولا تستطيع أن تتدحرج فيه رغم إرادتها وقيل له أن هذه الحجارة تمثل ...

هرماس (الراعي)

"الذين سمعوا كلام الرب ورغبوا (أرادوا) أن يعمدوا باسم الرب. ولكن إذ يتذكرون القداسة التي تفرضها الحقيقة، يغيرون رأيهم ويعودون مرة أخرى إلى الانقياد وراء شهواتهم الشريرة".

ولا شك أن هنا أثراً للمتطلبات العمادية التي أوضحتها الكنيسة لمستمعي الكلمة وهم طالبوا التعليم. فإذا كان البعض غيَّر رأيهم، يدل ذلك على أن هناك فترة اختبار قبل العماد وعلى ضرورة إعطاء علامات التوبة.

إن تنظيم طريق الموعوظين الذي نجده عند هيبوليتوس سنة ٢١٥ لم يأت من فراغ فهو ثمرة جهد رعوي راح يتقوى على مدى القرن الثاني. ولنا شهادة أخرى لهذا النضوج البطيء الذي نلمسه في مؤلف هرماوس وذلك في "الدفاع الأول" للكاتب يوستينوس. وهاهو النص الأهم الذي لا يصف إلا القبول للعماد الرسمي (بعناصره الثلاثة: آخر استعداد أو طقس جماعي وعماد وإفخارستيا) ولكنه يلمِّح أيضاً إلى تعليم سابق سنحاول توضيح مميزاته.

يوستينوس (دفاع، ٦١-٦٦)

"٦١ ١. نبيِّن الآن كيف نكـرس أنفـسنا لله إذ تجـددنا بالمسيح. فإن أغفلنا هذه النقطة في شرحنا بَدَونا مخطئين.

٢ - جميع الذين اقتنعوا وصدقوا الكلام الـذي علمنـاه وقلناه والذين يؤكدون أنه في إمكانهم الحياة بهذه الطريقة نعلمهـم أثناء الصوم أن يصلوا ويبتهلوا إلى الله طالبين مغفرة خطايـاهم الماضية بينما نحن نصلي ونصوم معهم.

٣ - حينئذ نأخذهم إلى حيث يوجد الماءِ وحسب طقـس الميلاد الجديد الذي تجددنا به سيتجددون هم أيضاً لأنه باسـم الله الأب ومالك كل شيء وباسم يسوع المسيح مخلـصنا، وبـالروح القدس يغطسون في الماء (يُحَمَّون).

-٦٥ أما بالنسبة لنا فإننا بعد أن غسلنا من يؤمن وانضم إلينا نأخذهم إلى حيث يوجد من نسميهم أخـوة وهـم مجتمعـون مصلون بحرارة صلوات جماعية لنا وللمستنير ولجميع الآخـرين حيثما كانوا لنصبح جديرين بأن نعلم بالحقـائق وأن نعتبـر مـن خلال أعمالنا أننا مواطنون صالحون وحراس الوصـايا بحيـث نخلص أبدياً.

-٦٦ نسمي هذا الغذاء "الافخارستيا" وغير مسموح لأي شخص المشاركة فيه إلا للذي يصدق ما نعلم به والـذي اغتـسل بحمام لمغفرة الخطايا لأجل الميلاد الجديد ويحيا كما علم المسيح".

التعليم الإنجيلي السابق

في هذه الحقبة لم يكن العمل الرسولي قاصراً على بعض الأخصائيين فقد كان اهتمام كل مسيحي أ، يجلب كل أقاربه إلى الإيمان كما يتكلم يوستينوس عن قصة المرأة التي، بعد أن عرفت تعاليم المسيح، تابت وحاولت إقناع زوجها بالتوبة ونقلت له التعاليم وعرضت له عقاب النار الأبدية المعدة للذين يعيشون في الخطيئة وضد التعقل.

فليست البشارة امتياز رجال الدين ولا العلماء لأنها رسالة كل المسيحيين حتى أقلهم ثقافة يقومون بها حسب نعمتهم الخاصة ونعمة زمانهم.

يوتسنوس (الدفاع، ٦٠)

"وعندما يمكن سماع وتعلم هذه الأشياء حتى ممن يجهلون حروف الكتابة من أناس بسطاء لغتهم أولية (غير مصقولة) ولكنهم حكماء وأوفياء بالروح ولو كانوا معوقين أو محرومين نعمة البصر".

ويتم التبشير بطريقة مرنة وتلقائية ولكن يجب أن تكون جادة والتعليم عميقا.وهناك بعض المسيحيين يتخصصون في هذا العمل لإثبات الإيمان والتدريس بفتح مدارس مثل الفلاسفة في هذه الحقبة من الزمن : إنهم مجموعات خاصة لا تنظيمية.

إن الكنيسة لا تأخذ على عاتقها المسئولية المباشرة للدروس التي تلقى هناك ولكن الحالة موجودة فإن العلمانيين يهتمون بالتبشير وبتثقيف المهتدين.

شروط لقبول العماد

إن قبول العماد نهاية إعداد طويل خاضع لمتطلبات معينة دقيقة نلخصها في ثلاثة:

١) الندامة على الخطايا لأن العماد حمام لغفران الخطايا (١/٦٦) يوستينوس يؤكد هذه النقطة وهو يذكر نص أشعيا الشهير (١/١٦-٢٠) "كفوا عن الشر وتعلموا صنع الخير" وهذا ما يفسره دائماً الآباء في عظاتهم عن العماد (الدفاع الأول ٦١/٦-٩).

٢) ثم الإيمان بالكنيسة معلمة الحق فكل ما تعلمه وتقوله يقبل كحقيقة وهذا (٢/٦١) يفترض بالطبع تعليماً سابقاً جاداً.

٣) وأخيراً حياة متجددة : يجب التأكيد بالحياة وفق هذه العقيدة (٢/٦١) فكيف يتسنى ذلك إذ لم تكن هناك فترة سابقة كافية لتحويل الأخلاقيات جنياً إلى جنب مع التعليم ؟ وسواء أيخص الافخارستيا أم المعمودية، فإن السر لا يعطي إلا للذي يحيا الحياة التي يريدها المسيح.

إن فترة التكوين، مهما كانت مرنة في هذا العهد تخضع لحكم الكنيسة التي تحكم على صلاحية المتقدمين من خلال هذه الشروط الأساسية.

ولكن ليس زمن العماد بعد. إن منح العماد تسبقه فترة يمكن تسميتها :الفترة العمادية".

الفترة العمادية

قبل العماد هناك بضعة أيام للاستعداد الطقسي وكانت تلك عادة في سوريا منذ نهاية القرن الأول فإن الديداكيه تقول :

الديداكيه

"قبل المعمودية فليصُم المعمِّد والمعمَّد ومن يريد من الآخرين. ولكن على المعمَّد أن يصوم يوماً أو يومين قبلاً.

وفي عهد يوستينوس ينضم بعض المؤمنين إلى الموعوظين ويصلون معهم ويصومون (٢/٦١) وهم يدربونهم على الحياة الدينية المشتركة وفي النهاية يرافقهم إلى مكان العماد ويضمونهم إلى جماعة الأخوة المتسعة ليحتفلوا بالافخارستيا (٦٥-٦٦).

- وهكذا تُظهر شهادة يوستينوس الخطوات الأساسية والمتطلبات التعليمية وخلال العقود التالية ستقنن هذه المراحل وهذه المتطلبات بدقة أكبر.

في مصر نحو سنة ١٩٠ - ٢٠٠

وفي مصر في نهاية القرن الثاني لا يوجد بعد تقنين واضح لطريق الموعوظين ولكن هناك تقاليد ومصطلحات خاصة تشير إلى وجود تكوين ديني جاد وحسب أوزيبيوس القيصري فقد أنشأ بانتيوس في الإسكندرية مدرسة الكرازات وقد كان أكليماندوس خليفاً له على رأس تلك المدرسة سنة ١٩٠ وقد أراد

بعض الكتاب نفي التصريح ولكن يبدو فعلاً أن المعلومات التي أعطاها أوزيبيوس صادقة.

على كل فإن مؤلفات أكليماندوس تشهد بلا لبس على استعمال كلمة "الموعوظ" وممارسة نظام حقيقي لطريق الموعوظين.

إن النصوص كثيرة بهذا المعنى وها بعض منها يوضح بعضها بعضاً.

الكرازة

من جانب المبشرين أولاً نرى أنه قد تم مجهود ذهني ضخم للاعتماد على قيم الفلسفة اليونانية.

اكليماندوس الإسكندري (استرومات الأولى ٤/١٩)

"التبحُّر في العلم (سعة الإطلاع) يُعزز العلم الذي يعرض أهم العقائد ويساعد على إقناع المستمعين إليه ويبعث الإعجاب لدى الموعوظين ويهيئهم للحقيقة.

ويبدو أن معظم الذين يقيدون أسماءهم هم أتباع رديئون للكلمة مثل رفقاء "أوليسي". إنما من تجمع ما هو مفيد (في الدراسات اليونانية) لتعليم الموعوظين يجب ألا يحجم (عن استعمال) بتبحره بل يستغله إلى أقصى درجة لمساعدة مستمعيه".

ونلاحظ أن هذا التعليم غايته الإيمان في قلوب الذين يستعدون للعماد.

اكليماندوس الإسكندري (المربي ١/٢،٣٠) – (المربي ١ /٣٢،٣٦)

"الكرازة تجلب الإيمان تدريجياً والإيمان عند المعمودية يتقبل تعاليم الروح القدس" فالأشخاص البشريون يمكن اعتبارهم الموعوظين الجدد الذين مازالوا صغاراً في المسيح. فالرسول يسمى فعلاً "روحانيين" من يؤمن بالروح القدس بينما يسمي "جسديين" الموعوظين الجدد الذين لم يتطهروا بعد (بالمعمودية)".

وليست هذه التربية أدبية محض. إن هناك فرقاً بين المعمدين والذين يتأهبون لقبول العماد : إن الموعوظين يرغبون في أن يحيوا حياة مسيحية أما المؤمنون فإنهم بفضل السر قد نالوا القدرة فضلاً عن ذلك لأنهم بلا شك نالوا السر بعد توبة نصوح وفحص جدية التحويل في حياتهم.

اكليماندوس الإسكندري (استرومات الثانية ٢٦/٤–٥)

"عند البعض يوجد مع الإرادة مقدرة العمل عندما يُنمّونها بالمران ويتطهرون. وعند البعض الآخر فإنه وإن لم يكن لديهم المقدرة فلهم على الأقل الإرادة.

ولا شك أن الأعمال لا تقاس فقط بالتنفيذ ولكن يحكم عليها بالنية المتعمدة لكل واحد. هل أتم الاختيار بشكل عفوي (سطحي) ؟ هل ندمنا على أخطائنا ؟ هل تنبهنا إلى زلاتنا ؟ وهل اعترفنا بها ؟".

طريق الموعوظين

إذن يشير كل هذا إن التغيير الشامل في الحيـاة تتطلـب فترة ما للتكوين ويرى أكليماندوس أنها تستمر مدة ثلاث سـنوات على الأقل بعد قيد الأسماء.

اكليماندوس الإسكندري (استرومات الثانية ٣/٩٥ – ٩٦/ ٢)

"القانون لا يسمح أن نجني ثماراً غير كاملة من أشـجار غير كاملة ولكن (تريد) بعد ثلاث سنوات وأن نكرس في الـسنة الرابعة بواكير الحصاد إلى الله عندما تصل إلـى الـشجرة إلـى الكمال. وهذه الصورة المأخوذة عن الطبيعة يمكن أن تكون درسا نوعا ما. فهي تعلمنا ضرورة انتزاع زوائد الأخطـاء ونباتـات الفكر الزائفة التي تنمو في نفس الوقت مع الثمار الطبيعية حتـى يبلغ نبت الإيمان اليافع حجمه التام وصلابته وفعلاً فإنه في السنة الرابعة – لأن الوقت ضروري لذلك لتكوين مرحلة عماد قوية – يتم فيها تكريس الفضائل الرباعية إذ تلمس المرحلة الثالثة وهـي أيضا منذ الآن المرحلة الرابعة التي هي مسكن الرب".

ولنا إذن أن نستنتج مع "أ. ميهاة" أن مؤلفات أكليماندوس تشير إلى وجود فترة وعظ في الإسكندرية سنة ٢٠٠ وهي تؤكـد بوضوح أن هناك موعوظين يسجلون أسـماءهم ويتلقـون لعـدة سنوات تعليماً وتكويناً في سبيل العماد وحتـى إذا كـان تنظـيم مدرسة التعليم مرناً وحتى إذا انضم بعض الوثنيين "وحادثو العهد بالعماد" إلى الموعوظين لسماع هذا التعليم فإن هناك شيئاً أكيـداً: وجود مجموعة من التائبين يتبعون تكويناً خاصاً قبـل تقـديمهم لأسرار التنشئة.

في أفريقيا الشمالية

نحو سنوات ٢٠٠ - ٢١٠

في الواقع إننا نرى في الفترة التي يُعلِّم فيها أكليماندوس في مصر ويكتب مؤلفاته أن الجماعات المسيحية في أفريقيا الشمالية يعيشون نفس الحياة الإعدادية للعماد ويستعملون نفس المصطلحات.

ونكتفي بذكر استشهاد بربتوة ورفقائها والقصة تحكي أحداثاً حصلت سنتي ٢٠٢ – ٢٠٣ فمنذ السطور الأولى من القصة نشاهد مجموعة من الموعوظين مقبوض عليهم من أجل إيمانهم.

آلام برباتوه ١/١

"بعض الموعوظين الجدد قُبض عليهم : ريفوكاتوس وفليسيتى رفيقتها في الرق وساتورنينوس وسيكوندولوس. ومعهم فيبي بربتوه النبيلة المولد وذات الثقافة المعتنى بها زوجة وأم وكان لها أب وأم وأخوان على قيد الحياة وواحد منهما من الموعوظين".

الموعوظون

أذا أردنا أن نقتفي آثار ظهور طريق الموعوظين علينا أن نلتفت إلى المصطلحات التي تصف المهتدين في سيرهم نحو العماد فلفظ "الموعوظ" هو الذي يحظى بأكثر استعمال ولكنه ليس

الوحيد ولا الأول فقد صادفنا لفظ "المهتدي إلى المسيح" وهناك تسميات أخرى.

وبجانب عبارة الموعوظ المشتقة من اليوناني والتي تتردد كثيراً عند ترتليانوس فإننا نجد أيضاً مثل ما وجدنا عند أكليماندوس وبعد ذلك عند قبريانوس، كلمة "مستمع" المشهورة. وهناك لفظ آخر لا يذكر كثيراً ولكنه مهم مثل "دفعة" المقابل لكلمة جندي.

وهذان اللفظان يقابلان بالضبط الفرق الذي يضعه ترتليانوس بين الموعوظ والمؤمن عندما ينتقد عقيدة المرسيونيين.

ترتوليانوس

"لسنا ندري من هم الموعوظون ومن هم المؤمنون. يدخلون بنفس الطريقة ويستمعون ويصلون بنفس الطريقة. حتى ولو جاء الوثنيون فإنهم يلقون الأشياء المقدسة للكلاب واللآلئ (المزيفة) للخنازير. فالموعوظون يُطلعون نهائياً قبل أن يُعلَموا".

وفي مؤلفه عن التوبة يطلق ترتليانوس اسم "المبتدئ" على الموعوظين ويتحدث عن الدفعة العسكرية التي تقابل بالفرنسية تدريبات الصفوف (١٤/٦).

فهذه العبارات العسكرية تميز ما بين الدفعة الجديد الذي يتدرب والجندي الذي أدلى بالقسم وطبع بخاتم الجندية.

ونجدها أيضاً عن كوموديانوس الكاتب الذي يظن اليوم أنه كان أفريقياً وكان يعيش في القرن الثالث ونقرأ في كتابه

"التعليمات" توجيها إلى الموعوظين حيث يساوي بين كلمة دفعة وموعوظ.

كوموديانوس (تعليمات ١١/٥)

"أيها المؤمنون بالمسيح الذين تركتم جميعاً الأصنام أنصحكم بكلمات موجزة لخلاصكم إذا كنت في الأزمنة الأولى تعيش في الضلال فالآن وقد أصبحت مكرسا للمسيح فدع كل شيء وبما أنك عرفت الله فكن مجنداً جيدا وأصبح جنديا محنكا وليحيي حياءك العذري في الحمل. وليكن روح الصديقين يقظا. وحذر أن تحيا كما في الماضي. إن المعمودية تزيل الوصمة الأصلية. فإذا أخطأ أحد الموعوظين أنزل عليه عقاب. فإذا دمغت بالعقاب يمكنك أن تعيش (في المسيح) ولكن لن يكون ذلك دون أضرار. تجنب قبل كل شيء الأخطاء الجسيمة".

فهو إذن من المؤكد أن في السنوات ٢٠٠-٢١٠ في قرطاج كما في الإسكندرية توجد فترة زمنية للتكوين الديني الذي يخضع له كل من يتأهب لقبول العماد.

وليس مصرحا لهم قبول الأسرار إلا إذا رأت الكنيسة عن طريق المسئولين جدية توبتهم.

الفترة العمادية

وفي نهاية طريق الموعوظين يُكَوِّن من قُبِلَ مجموعة الذين سينالون العماد وهم "المباركون" ويقضون فترة، ربما أسبوعاً، في الصلاة والسهر والأصوام.

ترتوليانوس (عن المعمودية ٢٠/١،٥)

"من أشرفوا على المعمودية يجب عليهم أن يبتهلوا إلـى الله بصلوات حارة وبالصوم والركوع والسهر. ويستعدون أيضا بالإعتراف بجميع خطاياهم الماضية. فإن عَذبنا الجسد والروح نكفر عن الخطيئة وفي نفس الوقت نتزود مقدماً ضد التجارب المقبلة.

فأنتم يا مباركون يا من تنتظرهم نعمة الله أنتم يا من (ستصعدون) ستنهضون من حمام الميلاد الجديد المقدس أنتم يا من ستمدون أيديكم لأول مرة بالقرب من أم ومع أخوة اطلبوا من الآب اطلبوا من الرب كهبة خاصة من نعمته غزارة مواهبه".

ويمنح العماد في أي يوم ولكنه يمنح خاصة في عيد القيامة "حينما تتم آلام الرب الذي فيه يتعمدون".

ويمنح أيضاً في يوم العنصرة الذي، في هذا العهد، ليس العيد الخاص باليوم الخمسين وإنما عيد الخمسين يوماً من زمن الفصح وهو "الزمن الذي فيه أُعطيت نعمة الروح القدس للتلاميذ والتي فتحت أمامهم آفاق الأمل في عودة الرب".

لكن ترتليانوس لم يترك لنا إلا النذر اليسير عن مراسيم العماد نفسه والنص الأكثر وضوحاً هو المذكور في كتابه "عن التاج".

ترتوليانوس (عن التاج ٣/٢-٣)

"عند النزول إلى الماء وفي نفسِ المكان كما فعلنا سابقاً في الكنيسة تحت يد المطران نشهد أننا ننبُذ الشيطان وجميع

أعماله وملائكته. ثم نغطس ثلاث مرات مرددين شيئاً أكثر مما حدده الرب في الإنجيل. وبعد خروجنا (من حمام) نتذوق أولاً مزيجاً من اللبن والعسل ومنذ هذا اليوم نمتنع كل الأسبوع من الحمام اليومي".

في روما نحو سنة ٢١٥

في بداية القرن الثالث يشهد "التقليد الرسولي" الذي كتبه هيبوليتوس في روما أن المراحل لطريق الموعوظين ليست كلاماً باطلاً وأن طريق الموعوظين ليس فقط فترة تكوينية طويلة إذ تستمر عادة ثلاث سنوات، بل هو محصور بين امتحانين للقبول في غاية الجدية، لا ينبغي لنا أن نفهم كلمة امتحان بمعناها المدرسي ولكن بمعنى الفحص. وهو يكشف لنا أهمية الأسئلة التي كانت تطرح في اللحظات الحاسمة والضمانات المطلوبة.

الدخول إلى طريق الموعوظين

إن القبول في طريق الموعوظين لهو من ذاته اختيار بين المتقدمين فيرفض بعضهم بسبب عدم نقاوة أسباب سعيهم. والذين ندعوهم اليوم "شبين" أي المسيحيين الذين قاموا بتبشير هؤلاء المتقدمين ويرافقونهم أمام الكنيسة، عليهم أن يشهدوا بصلاحيتهم ليصبحوا موعوظين. هل لديهم الإيمان الكافي لسماع الكلمة في الكرازة ؟ ويطلب كذلك رأي أصحاب الأعمال المسيحيين إذا ما تقدم خدامهم للقبول.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي (١/٦٩-٧٥))

"من يتقدم للمرة الأولى لسماع الكلمة يُعرض أولاً على المعلم قبل حضور الشعب ويسأل عن السبب الذي من أجله يأتي إلى الإيمان. ومن أحضره يشهد له (المعلم) إنه قدير بسماع (الكلمة). ثم يسألِ عن حالة حياته هل له امرأة؟ هل هو عبد؟ فإذا كان أحد عبدا لمؤمن وإذا سمح له سيده يُصرح له لسماع الكلمة. فإذا لم يشهد له سيده (قائلا) إنه جدير، يطرد. وإذا كان سيده وثنيا عُلم كيف يُرضي سيده منعا من النميمة".

حينئذ يخطر المقبولون بالمتطلبات الأساسية للحياة المسيحية.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي ١/٦٩-٧٥)

""فإذا كان لرجل امرأة وللمرأة رجل فيُلقَن أن يكتفي الرجل بامرأته والمرأة بزوجها فإذا كان أحدهم لا يعيش مع امرأة فيعلم ألا يمارس الزنى بل يتخذ امرأة حسب الشريعة أو يظل كما هو. وإذا كان أحدهم ممسوسا بالشيطان فلن يسمع الكلمة حتى يتطهر".

ويطلب أيضاً من المتقدمين ترك المهن التي لا تتفق والسلوكيات المسيحية كالتي تقود إلى ارتكاب إحدى الخطايا الكبيرة مثل عبادة الأوثان والقتل والنجاسة.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي ١/٦٩-٧٥)

"يبحث (للعلم) عن مهن حرف الذين يحضروا ليتعلموا.

وإذا كان أحدهم صاحب بيت دعارة ينقطع ويطرد.

وإذا كان نحاتاً أو رساماً ينبه عليه ألا يصنع أوثاناً فإما يكف أو يطرد. وإذا كان ممثلا أو يؤدي أدوارا في المسرح فليكف أو يطرد.

ومن يعلم الأطفال يستحسن أن يمتنع فإن لم يكن لديه مهنة أخرى يسمح له بالتدريس. كذلك الحوذي الذي يتبارى أو يشترك في الألعاب يمتنع أو يطرد والمصارعون أو من يُعَلم المصارعة أو صائد الحيوانات الذي يشترك في الصيد (في الحلبة) أو الموظف الملتحق بألعاب المصارعين فليمتنعوا أو يطردوا.

ومن كان كاهناً لصنم أو حارساً له فليتوقف أو يطرد.

والجندي المحكوم لن يَقتل أحداً. فإذا أُمر بذلك لن ينفذ ولن يُقسم فإذا رفض طرد ومن له مقدرة السيف أو كان حاكم بلدة ويلبس الأرجوان فليستقل أو يطرد. والموعوظ أو المؤمن الذي يريد أن يكون جندياً يطرد لأنه احتقر الله.

"والزانيات" وشذوذ الجنس والخناس وكل من يعمل أشياء لا يمكن الحديث عنها يطرد لأنه غير طاهر. ولن يقبل المجوس للامتحان.

الساحر والمنجم وقارئ البخت ومفسر الأحلام والدجال والقاطع الذي يُقرُط أطراف القطع النقدية إما يمتنعون أم يطردون. الخليلة إذا كانت عبداً وإذا ربت أولاد سيدها وارتبطت

به فقط تسمع الكلمة وإلا تطرد. والرجل الذي له خليلة فليتوقف ويتزوج حسب الشريعة إذا رفض يطرد.

فإذا نسينا شيئاً آخر فإن المهن ذاتها تعرفكم لأننا كلنا لدينا روح الله".

الكرازة

يقوم بالكرازة العلماء سواء أكانوا من الإكليروس أم من العلمانيين وتمتد إلى ثلاث سنوات.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي ١/٦٩-٧٥)

١٧: "يستمع الموعوظون للكلمة ثلاث سنوات. ولكن إذا كان أحدهم متحمساً ومجتهداً فلن نحكم عليه حسب الوقت وإنما نحكم على سلوكه.

١٨: "ولما ينتهي المعلم عن عظته يصلي الموعوظون على حدة بعيداً عن المؤمنين. وتصلي النساء في مكان منفرد في الكنيسة سواء المؤمنات منهن أو الموعوظات. فإذا انتهوا من الصلاة لن يتبادلوا قبلة السلام لأن قبلتهم ليست مقدسة بعد.

١٩: "وبعد الصلاة يضع المعلم يده على الموعوظين ويصلي ثم يصرفهم. ومن يعلم سواء أكان اكليريكاً أم علمانياً يعمل هكذا".

وتجرى الكرازة أثناء الاحتفال الجماعي الذي يقام عادة في الصباح قبل الذهاب إلى العمل.

ويبدو أن الموعوظين لا ينظمون جماعة خاصـــة فهـــم ينتمون إلى الكنيسة ولو أنهم ليسوا أعــضاء بالكنيــسة عــضوية كاملة. فإنهم يشتركون في كرازة الكلمة مع المؤمنين لكـــن لهـــم مكاناً خاصاً في الاجتماعات ولا يتبادلون قبلة السلام.

وفي نهاية هذه الليتورجيا المشتركة يتلو الواعظ صـــلاة خاصة من أجل الموعوظين ويسبقها وضع الأيدي وهـــو عبـــارة عن طرد الأرواح النجسة.

دخول العماد

يفترض القبول في العماد فحصاً جديداً. وعلى الشباين أن يشهدوا أيضاً ولكن هذه المرة تشمل الشهادة سلوك الموعـــوظين أثناء زمن الكرازات. والذين يُعتبرون مؤهلين يكونون "مختارين" فيمكنهم سماع الإنجيل أي القبول إلى طقوس العماد.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي ١/٦٩-٧٥)

٢٠: "عند اختيار من سيعمَّد تُفحص حياتهم. هل عاشـــوا شرفاء أثناء وعظهم. هل كرموا الأرامل ؟ هل زاروا المرضـــى ؟ هل عملوا أعمالا صالحة ؟ وإذا شهَد لهم بذلك من أحـــضرهم قائلين "نعم فعلوا هكذا" حينئذ يسمعون الإنجيل".

وهكذا تفتح المرحلة العمادية التي، كمـــا شـــاهدنا عنـــد ترتوليانوس، تستمر أسبوعاً واحداً. وكل يوم توضع عليهم الأيدي لطرد الأرواح ثم يتبع ذلك وضع أيدي احتفالي من قبل الأسقف.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي ١/٦٩-٧٥)

"منذ اللحظة التي وُضعوا فيها جانباً توضع الأيدي عليهم يومياً عند تعزيمهم. وعندما يقترب يوم المعمودية يعزم المطران على كل منهم ليتأكد من أنهم أطهار. فإذا لم يكن أحدهم حسنا أو طاهرا يبتعد لأنه لم يستمع إلى الكلمة بإيمان لأنه من المستحيل أن يتهرب الغريب دائما.

ينبه على من سيعمد بالاستحمام والاغتسال يوم الخميس. فإذا كانت امرأة في زمن الحيض تجنب وتعمد في يوم آخر. ومن سيعمد يصوم يوم الجمعة.

وفي يوم السبت يجمع المطران في نفس المكان من سيعمد. ويُؤمَرُوا أن يصلوا ويركعوا عند وضع الأيدي عليهم. ويستحلف المطران كل روح غريبة أن تتركهم ولا تعود إليهم. فإذا انتهى من التعزيم ينفخ على وجوههم وبعد أن يرسم إشارة الصليب على جبهتهم وأذنيهم ومنخارهم يُنهضهم. فيقفون الليل ساهرين وتتلى عليهم قراءات ويُعَلمون ولن يجلب الذين سيعمدون أي شيء معهم إلا ما يحضر كل منهم لسر الافخارستيا. فمن اللائق أن من أصبح جديراً أن يقدم التقدمة في نفس الساعة".

وإن هيبوليتوس، بعد أن وصف الاحتفال بالقبول يضيف عبارة ذات معنى واضح فهو يؤكد أن العماد والافخارستيا ليسا نقطة النهاية بل هما بداية، بداية حياة يجب أن تنمو باستمرار.

هيبوليتوس (التقليد الرسولي ١/٦٩-٧٥)

"فإذا تمت هذه المراسيم يجتهد كل واحد لعمل أعمال صالحة وليرضي الله وليتصرف تصرفا حسنا ويتحمس للكنيسة منفذا ما تعلمه ومتقدما في التقوى".

وإن نظاماً تعليمياً دقيقاً كالذي يقدمه "التقليد الرسولي" ليس حالة فريدة في هذا العهد. وقد رأينا لأن هذا النظام كان في طور إنبات منذ بدء الكنيسة ونمى رويدا رويدا خلال القرن الثاني. ورأينا أيضاً أن المتطلبات ذاتها كانت موجودة نحو سنة ٢٠٠ في كنائس الإسكندرية وقرطاج. وسوف نجدها أكثر وضوحا في العقود التالية خاصة في الجزء الشرقي من عالم حوض البحر الأبيض المتوسط.

في مصر وفلسطين نحو سنوات ٢٣٠ - ٢٤٠

إن أفضل الشواهد على حيوية مراحل طريق الموعوظين في النصف الأول من القرن الثالث في مصر وفلسطين نستقيها عند الواعظ العظيم اوريجينوس.

فقد كان هذا الرجل ذا نشاط عجيب ودائم السهر على جدية التكوين العمادي. ففي كنيسته النامية نراه يتألم من أن العدد كاد يؤثر سلبياً على الصفات الحميدة. وهو يجاهد حتى تبقى الحياة المسيحية كما كانت في القرن الثاني.

ونسمع من شفتيه هذه الكلمات التي تمسنا اليوم مباشرة.

اوريجينوس (عظة عن ارميا)

"إذا حكمنا على الأشياء حسب الحقيقة يجب أن نعترف أننا لسنا مؤمنين. عندما كان الاستشهاد ينزل منذ ولادة (الكنيسة) كنا مؤمنين فعلا. عندما كان الموعوظون يُعظون بين الشهداء وقتل المسيحيين الذين يعترفون بالحقيقة حتى النهاية وكان هؤلاء الموعوظون يتغلبون على كل التجارب متمسكين بالله الحي بلا خوف. حينئذ كان عدد المؤمنين قليلا بلا شك ولكنهم كانوا مؤمنين حقا سائرين في الطريق الضيق والمرير الذي يؤدي إلى الحياة".

وسعي اوريجينوس لخلق طريق موعوظين ممتاز إذ كان همه متواصلا لوجود مسيحية خالصة. لنفحص أولا كيف يتصور هذا التنظيم ثم نوضح المرحلتين الكبريتين وهما التبشير بالإنجيل والكرازة.

طريق الموعوظين على مراحل

لقد شبه اوريجينوس مراراً عديدة الاستعداد للعماد بالحادث الكتابي الذي نجده في سفر الخروج : وكثيراً ما اعتبر سير الشعب اليهودي عبر الصحراء صورة للحياة المسيحية التي تمتد من العماد إلى أعتاب السماء، وهو يعتبر أيضاً هذا الحدث صورة للمسيرة التعليمية التي تتدرج من التوبة (الخروج من مصر) والدخول في طريق الموعوظين (عبور البحر الأحمر) إلى العماد (عبور الأردن) الذي يقابل الدخول إلى مملكة المسيح (أرض الميعاد).

وهو يخاطب الموعوظبن هكذا :

اوريجينوس (عظة عن العدد)

"عندما تترك ظلمات الوثنية وترغب بلوغ معرفة الشريعة الإلهية حينئذ تبدأ خروجك من مصر. وعندما انضممت إلى جماعة الموعوظين وبدأت الطاعة لوصايا الكنيسة حينئذ تكون اجتزت البحر الأحمر. وأثناء الاستراحات في الصحراء تجتهد كل يوم لسماع شريعة الله وتشاهد وجه موسى الذي يكشف لك مجد الرب وعندما تصل إلى ينبوع المعمودية الروحي وفي حضرة النظام الكهنوتي واللاوي وتلقن مبادئ هذه الأسرار السامية الجليلة التي لا يعرفها إلا من لهم الحق حينئذ إذ عبرت نهر الأردن بواسطة وظيفة الكهنة تدخل إلى أرض الميعاد تلك الأرض حيث يتولى أمرك يسوع، بعد موسى، ويصبح دليلك في مسارك الجديد.

فإذا انتقلنا من ظلمات الخطأ إلى أنوار المعرفة وإذا تحولنا من حياة أرضية إلى طريق الحياة الروحية. حينئذ نخرج من مصر ونأتي إلى الصحراء أي سننتقل إلى نوع من الحياة حيث في حنايا السكوت والهدوء نتمرن على الشرائع السماوية ونتشرب من الوحي السماوي. ثم عندما نخضع لتعاليمهم وإرشاداتهم أي بعد اجتياز نهر الأردن نسرع نحو أرض الميعاد بنعمة المعمودية نصل إلى وصايا الإنجيل".

فهذه النصوص شواهد في غاية الأهمية على وجود المراحل في طريق الموعوظين وهي، فضلاً عن ذلك لها ميزة استخدام الصور الكتابية الواضحة التي يسهل شرحها للموعوظين بصورة حية.

التبشير

وفي المسيرة نحو العماد ليس طريق الموعوظين المسعى الأول فإنه يتبع فترة يتم فيها البحث والاستكشاف وغالباً ما ننساها. فهذه هي فترة التبشير يشعر الإنسان من خلالها بأهمية المسيح أو المسيحية، ويتعرف على المسيحيين دون أن يمر بالتنظيمات.

فهي فترة التبشير التي تثير في الإنسان إيماناً إجمالياً بالدين المسيحي. وهي فترة التحول الأول إلى المسيح الذي يحتوي على قرار بتغير الحياة وبدون ذلك لا يمكن قبول أي كان في طريق الموعوظين.

من هم أصحاب التبشير ؟

إن هناك أشخاصاً يكملون رسالة الرسل المتنقلة.

اوريجينوس

"يعمل المسيحيون، كلما كان ذلك مرتبطاً بهم، على نشر العقيدة في العالم أجمع. ولإنجاز ذلك أخذ البعض منهم على عاتقهم التجول ليس في المدن فحسب بل في القرى والضواحي ليجذبوا الآخرين إلى خدمة الله".

والمهمة الإرسالية هي مهمة الكنيسة كلها.

فبجانب المبشرين المحليين يوجد جمهور المسيحيين الذين يقومون بالتبشير حولهم.

وهم يقومون بهذا العمل تلقائياً في الحياة اليومية ليس بتخطيط ولكن بهذه العلاقات الوثيقة بين الأهل والأصدقاء وزملاء العمل كل حسب موهبته.

ويذكر أوريجينوس الطريقة التي بها كان وثني يدعى ساز يصف نحو ١٨٠ عمل العلمانيين التبشيري.

اوريجينوس

"ترى ممشطي الصوف وصانعي أحذية وأشخاصاً في منتهى الجهالة ولا ثقافة بالمرة عندما يكونون في حضرة الأساتذة وهم رجال ذوي خبرة وحكمة لا يفتحون فمهم ولكن إذا فاجأوا أطفالا في المنزل أو نسوة لا يفقهون أكثر منهم يمطرونهم بعجائب. هم وحدهم يدرون كيف يجب أن يحيا. فمن يطلبون معرفة الحقيقة ليتركوا جانبا المعلمين والآباء وليأتوا مع نسائهم وأولادهم إلى حرم أو مكان صانع الأحذية أو محل ممشط الصوف ليتعلموا الحياة الكاملة. هكذا يعملون لاكتساب الاتباع".

وكنا نود أن نعرف مضمون هذه البشارة الأولى وهذه الكرازة. يبدو أنها كانت تمس عقيدة الإله الحي في مواجهة عبادة الأوثان : الإله الخالق الإله الواحد محب البشر الذي نصل إلى معرفته من خلال الحياة والتاريخ.

وفي مواجهة السلطات الدينية الوثنية كانوا يعرضون حياة يسوع المرسل من عند الله والذي تبنى حياتنا البشرية حتى الموت لكي يفتح قلبنا إلى حياة أفضل ولا نهائية.

هكذا كان الإيمان ينبت في قلوب الذين يشعرون بجاذبية طريقة حياة المسيحيين ويشرعون في تقبل المسيح.

وهذه إجابة أوريجينوس على سلز وإن النص التالي يمس بلا شك التعليم الأولي كما يمس المحادثات العارضة في المحلات التجارية وفي المنازل.

اوريجينوس

"يخطأ "سلز" عندما يظن أننا نُخفي مبادئ عقيدتنا المقدسة. بالعكس نكرز بها في وضح النهار. حتى الذين يأتون إلينا لأول مرة نلقنهم احتقار كل الأصنام والتماثيل ثم نرفع أفكارهم نحو خالق كل شيء ونصرفهم عن تقديم للمخلوقات التكريم الواجب لله وحده. وأخيراً نبرهن لهم بمجيء من بُشر به عن طريق الأناجيل وكتب الرسل التي تناقلت بكل عناية لمن يمكن أن يفهموها بذكاء أكبر".

هو نفس الأساس المشترك الذي نجده نابتاً في الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي ١/٩-١٠ : رفض الأوثان والإقرار بالخالق الواحد وإيمان بالمسيح. وكل هذا مع عرض رائع لرفعة المسيحية وطهارتها وينتهي بدعوة صريحة للدخول في الملكوت.

القبول في طريق الموعوظين

لا يتم القبول في الحال بل يجب أن يسبقه بفترة تكوين واختبار نسميها فترة تقديم الطلب. ولن ينتظم الطالب في عداد

الموعوظين إلا بعد أن يسمع الوعظ أي يُبدي إيمانه وتوبته ببداية تغيير سلوك حياته. فلا يقبل أي شخص في طريق الموعوظين.

اوريجينوس

"إن الفلاسفة الذين يشرعون في مناقشات علنية لا يختارون مستمعيهم ولكن كل من أراد يقف ويستمِع. أما المسيحيون فإنهم على عكسِ ذلك كلما أمكن يمتحنون أولاً أنفس من يريدون الاستماع لهم ويُكوِّنونهم بصفة خاصة.

وعندما يتراءى لهم أن هؤلاء المستمعين أظهروا قبل قبولهم في الجماعة أنهم حققوا تقدما في إرادتهم لحياة صالحة حينئذ يقدمون للجماعة".

ونلتقي هنا بامتحان القبول المذكور لدى هيبوليتوس ولكن أوريجينوس مع أنه يؤكد وجوده فإنه يعرفنا بالكرازة السابقة التي يذكرها "التقليد الرسولي". وأوضح أن التعليم الأول خاص بإيقاظ الإيمان الذي كان يتم في المنازل والمحلات وليس بطريقة مدرسية.

فالذي نسميه اليوم "ما قبل طريق الموعوظين" كان معاشرة حيوية مع المسيحيين وشهادة إنجيلية حيث كان المسيحيون يلعبون دور الإشبين أكثر منه دور العلماء وكان ذلكِ إشعاع الجماعة المسيحية المندمجة في حياة الناس وليس تعليماً ذهنيا يلقى في إطار منظمة ما.

وكان هيبوليتوس يتحدث فقط عن امتحان القبول إلى طريق الموعوظين دون وصف المراسيم الطقسية المرافقة له لتحويل الطالب إلى موعوظ.

وفي فقرةٍ من كتابه "الحث على الاستشهاد" ربما نجد عند أوريجينوس تلميحاً لهذه المراسيم وهو إذ يوجه كتابه إلى المسيحيين الذين يرعبهم احتمال التضحية الكبرى فإنه يذكرهم بالالتزام الذي قرروه في لحظة معينة التي كانت بداية الوعظ.

فلو لم يكن هذا الالتزام قد تقرر لما كان الواعظ يعبأ بهم كما يوضح ذلك اوريجينوس في محاورة خيالية.

اوريجينوس

"في البدء عندما كان يجب أن تسمعوا التعليم كان معقولاً أن يقال لكم "إن ساء في أعينكم أن تعبدوا الرب، فاختاروا لكم اليوم مَن تعبدون، أما الآلهة التي عبدها آباؤكم في عبر النهر أ، آلهة الأموريين الذين أنتم مقيمون بأرضهم (يشوع ٢٤/١٥)" وكان رد الواعظ "أنا وبيتي نعبد الرب لأنه قدوس" والآن فقد فاتت أوان مخاطبتكم هكذا لأنكم قلتم "بعيد عنا نترك الرب لنخدم" "آلهة أخرى" الرب إلهنا هو الله الحقيقي الذي أخرجنا من مصر وآباءنا وحفظنا "في كل الطريق الذي سلكناه". وفي الاتفاق الخاص بموقفكم تجاه الله أجبتم واعظيكم "سنعبد الرب لأنه إلهنا".

وهذا النص، الذي يجهله كثير من مؤرخي طريق الموعوظين، يعطينا فكرة واضحة عما كان قرار الإيمان المطلوب من المتقدم للقبول في صف الوعظ.

ونلاحظ أنها نفس عبارات الحوار بين يشوع والعبرانيين عند معاهدة سيشيم (يشوع ٢٤/١٤-٢٤) وهي صيغة العهود الحاسمة والذين يتعاهدون هم أنفسهم شهود على التزامهم (يشوع

٢٢/٢٤و٢٧) فيفترض إذن بدء الوعظ، بالنسبة للمستمع، إن هناك حدثاً مشابهاً لمعاهدة سيشيم.

لذلك كان تطبيق هذا النص على الموعوظين مناسباً تماماً وما أروع أسلوب أوريجينوس الذي يعلمهم أن يروا اختبارهم على ضوء كلمة الله نفسها.

إن الالتزام المقرر في بدء التعليم واضح تماماً عند أوريجينوس ولكننا نجهل الصيغة التي يتم بها. هل كانت هناك مراسيم طقسية ؟ أو مثابلة خاصة ؟ محتمل، ولكن النص السابق لا يسمح لنا أن نؤكد ذلك لأنه يتضح أن العبارات التي يضعها أوريجينوس على شفاه الواعظ والموعوظين لم تقل كما هي بل هي مذكورة لإظهار قيمة الالتزام وصلاحيته.

فترة طريق الموعوظين

طريق الموعوظين فترة تكوين في الإيمان والأخلاق المسيحية ويذكر أوريجينوس أن هناك مجموعتين من الموعوظين.

أوريجينوس

"مجموعة خاصة مكونة من مبتدئين مقدمين حديثاً ولم يتسلموا بعد رمز الطهارة. ومجموعة أخرى مكونة ممن أظهروا، على قدر ما استطاعوا، إصرارهم على عدم قبول ما لا يليق بالمسيحيين".

المجموعة الأولى خاصة بالموعوظين كموعوظين والمجموعة الثانية خاصة بالمختارين الذين انتهوا فعلاً من تكوينهم وقد اختارتهم الكنيسة على أنهم صالحون للعماد لأنها رأت أنهم يستطيعون أن يحيوا حياة مسيحية وليس فقط يظهرون محض الرغبة. ويتكلم عنهم اوريجينوس قائلا :

اوريجينوس

"وعندما يبدي المهتدون الذين تقدموا أنهم تطهروا بالكلمة وكيف يمكنهم حياة أفضل حينئذ ندعوهم إلى التنشئة لدينا".

وكما في روما فإن الامتحانين للقبول للتعليم وللقبول للعماد يتمان بجدية ويمسان تحولاً في الحياة.

وليس الطالب نفسه هو الذي يحكم على صلاحيته ولكن أعضاء الكنيسة، مكلفين بذلك والذين يستند حكمهم على شهادات المسيحيين الذين وعظوا هؤلاء المستجدين وهذا واضح فيما يخص القبول في مراحل طريق للموعوظين.

اوريجينوس

"البعض مكلف بالاستعلام عن حياة وأخلاق من يتقدم ليمنعوا من يقومون بأفعال مُعيبَّة من الاشتراك في اجتماعات الجماعة وبالعكس ليرحبوا بكل قلوبهما بالآخرين لكي يساعدوهم على أن يكونوا أفضل يوما بعد يوم".

في سوريا نحو سنة ٢٥٠

إن ممارسة المراحل فـي طريـق الموعـوظين التـي شاهدناها في كل بلاد حوضِ البحرِ الأبيض المتوسط فـي بـدء القرن الثالث لا تمثل تفكيراً معزولا لبعض المبشرين المتحمسين.

بل هي عملية عادية تطورت تلقائيـاً فـي كـل مكـان واعترفت الكنيسة بأصالتها وضرورتها. وهناك دليل جديد مأخوذ من مستند قانوني وطقسي حُرر بسوريا فـي الـسنوات ٢٣٠ – ٢٥٠ ويدعى "تعليم الرسل".

تعليم الرسل (الديداسكالية)

كتب هذا الكتاب أسقف يهتم خاصة بتنظـيم إجـراءات التوبة ويستند على تنظيم إجراءات طريق الموعـوظين. أليـست التوبة كما أكد أوريجينوس مرتبطة بالعماد نوعاً ما وتتطلـب إذن اختباراً جديداً مرحلياً ؟

هكذا بطريق غير مباشر يصف لنا كتاب "تعليم الرسـل" مراحل الوعظ كما عاشتها الكنيسة في سوريا نحو سنة ٢٥٠.

إن التبشير عمل العلمانيين الـذين يحولـون أصـدقائهم ويؤالفونهم ليدخلوا الكنيسة بعزم وإيمان.

إن الدخول إلى طريق الموعوظين يفترض توبة صادقة.

"نحن لا نحرم الوثنيين مـن الحيـاة الأبديـة إذا تـابوا ورجعوا عن خطاياهم وألقوها بعيداً عنهم. الوثنيون الذين يرغبون في التوبة ويعدون بذلك ويقولون إنهم مؤمنون نقبلهم في جماعتنا

ليستمعوا للكلمة ولكن لن نتصل بهم حتى ينالوا الختم ويكونوا تدربوا تدريباً كاملاً".

ثم تليه فترة التكوين حيث يسمع المستجدون الكلمة ويظهرون أثماراً لائقة بالتوبة إلى اليوم الذي فيه يعتبرون أهلاً للدخول في فترة التأهب للعماد.

أعمال الرسل المنتحلة

بجانب كتاب "تعليم الرسل" الذي يعكس النظام الذي ارتضاه الرؤساء، هناك عدة كتب شعبية تزعم أنها تحكي قصة حياة الرسل.

وليست بالطبع كتابات موحاة ولذلك تدعى كتباً "منتحلة". ولكن هذه القصص ذات المغزى الروحاني لها قيمة كبيرة عندنا لأنها تحتوي في بعض فقراتها على معلومات حول كيفية ممارسة طريق الموعوظين كما كانت قائمة في النصف الأول من القرن الثالث وحتى بعض منها في نهاية القرن الثاني.

وقد تطول دراستها مفردة. لذلك نكتفي بذكر ما تكشفه لنا عن تكوين خطوات القبول فهي تستخدم الإطار المعروف من لفظي "الخارج" و"الداخل" في وصفها لتدرج المتقدمين. فيتم التبشير الأول عادة على الطريق أو في مكان عام.

أما الكرازة، بالعكس، فتتم في منزل لأنها موجهة فقط إلى تائبين تحققوا من تحويلهم وكذلك فإن القبول للعماد لا يتم قبل فحص إيمان وحياة الموعوظين.

فنجد هنا التكوين على مرحلتين، يؤدي كل منهما إلى امتحان لا يُسمح بدونه بالعبور إلى المرحلة التالية.

روايات اكليماندوس

فمثلاً إذا راجعنا إحدي هذه القصص من مجموعة "عظات اكليماندوس" نرى نوعاً آخر من القصص الشعبي في القرن الثالث كثير الشبه بـ "الأعمال المنتحلة". فهي تحكي قصة توبة شخص يدعى اكليماندوس. تأثر اكليماندوس هذا يوماً ما بالإسكندرية، عند سماع كرازة برنابا على قارعة الطريق. فقد كان بعض المسيحيين يبشرون بالمسيح كل من يأتي في الطريق على غرار الفلاسفة.

وكما حدث مع بولس فقد أثارت هذه الخطبة ردود فعل مختلفة كان معظمها عدائية.

ولكن اكليماندوس الذي مسته النعمة حاول تهدئة الجمهور الثائر وشرع في إقناعه ثم استضاف الواعظ لينقذه من أيدي الغوغاء وانتهز الفرصة ليتعلم عناصر الحقيقة الأولية.

والمشهد الثاني من القصة موقعه في فلسطين بالقيصرية وسوف نرى كيف أن الواعظ يذهب بالمهتدي الجديد إلى بطرس رئيس الجماعة ليشهد على صدق إيمانه وأهليته لقبول الكرازة.

اكليماندوس نفسه يتكلم ويقول:

اكليماندوس (عظات ١/١٥-١٧)

"طلبت أن يرشدوني إلى منزل بطرس فلما أخبروني مثلت أمام بابه. فلما رآني أهل البيت تساءلوا فيما بينهم من أكون ومن أين أتيت. وإذ برنابا يتقدم ولما رآني ضمني إلى صدره وسكب دموع فرح غزيرة. ثم أخذ يدي وأدخلني على بطرس وقال لي : هذا هو بطرس الذي وصفته لك على أنه أكثر المفضلين بحكم الله والذي طالما كلمتك عنه. أدخل فوراً لأنني حدثته بكل صراحة عن الخير الذي فيك وأخبرته في نفس الوقت عن مقصدك (خطتك) بحيث أنه هو أيضاً متشوق لرؤيتك. أنت هدية عظيمة تقدمها له يداي. وبعد هذا الكلام قدمني له قائلاً : يا بطرس هاهو اكليماندوس".

عند سماع اسمي أقبل بطرس الصديق نحوي وقبلني ثم أجلسني وقال لي : لقد أديت عملاً جميلاً ونبيلاً إذ، إكراماً لله الحقيقي، استضفت برنابا حامل شعار الحقيقة بلا خجل ولا خوف من الجماهير الغاشمة.

ستكون مطوباً لأنك كما رحبت بسفير الحقيقة كضيف وغمرته بالكرم فإن الحقيقة بدورها ستجعل منك أنت الغريب مواطناً في مدينتها، وسيكون حينئذ لك فرح عظيم إذ ترى أنه نظير عطفك الذي لم يدم طويلاً والذي تبديه الآن – أعني تفضيلك للعقيدة الحقيقية – سترث خيرات.

لا تجهد نفسك وتكلمني عن استعداداتك لأن برنابا الصادق أخبرنا بكل ما يتعلق بك محدثاً كل يوم تقريباً عن الخير الذي فيك. وبكلمة لصديق حقيقي أقول إذا لم يكن هناك أي مانع انضم إلينا في أسفارنا لتشارك في تعاليم الحقيقة التي أوزعها من بلد إلى آخر وحتى في روما ذاتها".

إن اكليماندوس لم يُقبل في الكرازات إلا بعد أن أظهر صدق توبته وبضمان الذي قام بتبشيره.

ونستخلص من هذه الرواية – التي تشبه توبة كورنيليوس (أعمال ١٠، ١١) – أن هناك تمييزاً واضحاً ما بين فترة التبشير ومرحلة التعليم المنتظم.

فالمرحلة الأولى تقود إلى الإيمان ولا يقبل التائب في المرحلة التالية إلا بعد أن تختبر الكنيسة أصالة توبته من خلال سلوكه وإن أمكن بضمان الذي كان أداة لهذه التوبة.

ونلاحظ نفس الجدية في الامتحان الذي ينهي فترة طريق الموعوظين والتي تسمح للموعوظ ان يتقدم للعماد.

هكذا لم ينل اكليماندوس العماد من بطرس إلا بعد أن رافقه ثلاثة أشهر، ينصت إلى عظاته ويبدي التغيير في أسلوب حياته.

ويسبق احتفال القبول دائماً بضعة أيام من الصوم.

ويتم العماد في مجرى ماء بحضرة الأهل والأصدقاء ثم يعود الجميع في موكب للاحتفال بالافخارستيا مع الاخوة.

وبدون أن نزايد في قيمة أدلة النصوص التي يجب تحقيق مصدرها، يتبلور من كل هذه القصص الشعبية اقتناع إجمالي وهو أن في القرن الثالث كان لممارسة طريق الموعوظين نفس التكوين في كل مكان.

في فجر القرن الرابع

إن المعلومات التي نستقيها من بعض المجامع في فجر القرن الرابع هي أقل منها وضوحاً ولكنها مع ذلك تؤكد تكوين طريق الموعوظين الذي وصفناه آنفاً حتى ولو نلاحظ فيه بعض الانحراف في التنظيم. وتخبرنا هذه المعلومات أن تدرج المراحل لا يزال قائماً وأن ضرورة وجود فترة ما للتكوين الأساسي مؤكدة باستمرار.

المجامع المنعقدة حول سنوات ٣٢٠ - ٣٢٥

نحو سنة ٣٠٠ في أسبانيا يشهد مجمع "الفيرا" على الاحتفاظ بالمتطلبات بالنسبة للمهن التي يجب الامتناع عنها للقبول في الكرازات مثل الغانية (ف ٤٤) وقائد العربة والممثل المسرحي (ف ٦٢) ويوضح أن هناك طقساً للقبول في طريق الموعوظين وهو وضع الأيدي الذي بواسطته يصبح الشخص مسيحياً (ف ٣٩). ويطالب بفترة تكوينية تستمر سنتين إلا في حالة طوارئ كالمرض مثلاً (ف ٤٢). فهذه أقل صعوبة من قوانين اكليماندوس وهيبوليتوس مع أن بعض الخطايا الكبيرة قد تمدد فترة التكوين إلى ثلاث سنوات (ف ٤) أو خمس (ف ٧٣) أو حتى الموت (ف ٦٨).

في سنة ٣٢٥ يلاحظ مجمع نيقيا بأسف أنه قد تم عماد بعض الأشخاص حديثي الانتقال من الحياة الوثنية إلى الإيمان ولم يتبعوا التعليم إلا مدة وجيزة".

ولذلك فهو يقرر أنه لا يحق مثل هذا العمل مستقبلاً لأنه من الضروري تخصيص وقت كاف للموعوظ (في سبيل العماد) (ف ٢).

كاتدرائية صوَر (لبنان)

وفي نهاية هذه الدراسة السريعة في القرنين الثاني والثالث التي استعرضت نشأة نظام طريق الموعوظين وانتشاره نشاهد صورة توضح لنا الحالة التي توصلنا إليها.

وهذه الصورة هي الكاتدرائية الشهيرة التي شيدها بعد حالة استقرار الكنيسة "بولان" أسقف صور والتي أشاد بها اوزيبيوس نحو سنة ٣١٧. وفي وصف لها مطول يصعب أحياناً إدراك معنى كل التفاصيل يعرض لنا اوزيبيوس أجزاء هذا المعبد الرائع المختلفة كأنها مراحل حياة المسيحيين الروحية.

ونرى فيه بوضوح الفترات المختلفة لطريق الموعوظين.

فيتحدث الخطيب أولاً عن البهو الواسع الكائن ناحية الشرق وكأنه "يدعو غير المؤمنين ليديروا أنظارهم نحو المدخل الأولى (رقم ٣٨)، فهذه موكل بها حراس يوجهون الداخلين" (رقم ٦٣).

وبين هذه المداخل والمعبد نفسه يوجد مكان فسيح تحوط به أربع رواق (رقم ٣٩)" حيث وضعت رموز التطهير المقدس أي عيون الماء".

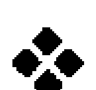
فهذا المكان مناسب لمتطلبات هؤلاء الذين ما زالوا في حاجة إلى مبادئ التعليم (٤٠) والذين يتقدمون على المشارف

الأولى لحرف الأناجيل الأربعة (٦٣) ونرى في هذا تلميحاً إلـــى الذين كانوا من قبل خارج الإيمان ثم اهتدوا وانضموا إلى جماعة الموعوظين.

ثم نرى هناك دهاليز عديدة تفتح أبوابها نحو المعبد (٤١) هناك الذين يتقربون أكثر إلى جانبي الكاتدرائيـــة فهـــم مـــازالوا موعوظين وقائمين في النمو والتقدم دون أن يكونـــوا مـــع ذلـــك بعيدين لفترة طويلة عن رؤية الأشياء الداخليـــة التـــي يـــشاهدها المؤمنون (٦٣) ونرى هنا بلا شك وصف جماعـــة "المختـــارين" للعماد القريب.

وأخيراً يوجد من كل جانب من المعبد غرف ضـــرورية للذين لا يزالون محتاجين إلى التطهير والوضوء الذي يمنحه الماء والروح القدس.

هناك يقبلون النفوس الطاهرة التي تنقى كالذهب في حميم إلهي (٦٤).



فمن يوستينوس إلى اوزيبيوس سار التطورٍ بصفة عادية والذي كان نبتا جنينا في العهد الجديد نما نمواً مطرداً.

وقد انتظمت مرحلة العماد في البداية بامتحان القبول ثـــم انتظمت فترة طريق الموعوظين وقد صيغت شروط القبول فيهـــا صيغة واضحة مما يؤكد ضرورة تأمين فتـــرة تبـــشيرية ســـابقة والتاريخ ينطق من ذاته. ففي كل أرجاء عـــالم حـــوض البحـــر

الأبيض المتوسط أرست الكنيسة الرسـولية قواعـد إلا للإعـداد الجدي للعماد.

وفي القرن الثالث نـشاهد الـصورة الأصـلية لطريـق الموعوظين : شهادة الشهداء، وحوار المسيحيين وحياة الجماعـة التي توقظ إيمان المهتدين ثم تهتم بهم الجماعة وتسير معهم فهـي تحتضنهم وتفقههم وتكونهم حتى تؤهلهم تدريجيا للدخول في هـذه الحياة الجديدة التي لابد أن تنمو باستمرار وتأتي بالثمر المرجو.

الفصل الثالث

تقلبات طريق الموعوظين

من القرن الرابع إلى القرن السادس

يشكل السلام القسطنطيني سنة ٣١٣ تحولاً هاماً في تاريخ الكنيسة فقد كانت المسيحية ديناً محرماً ثم صارت نظاماً يحتمله الشرع وستتحول قريباً إلى نظام حرية ذات امتياز.

ويسر المسيحيون بحق بأنهم يستطيعون منذئذ أن يشهروا إيمانهم ولا يخافون المضايقات ولكن سيكون هذا التغيير مثقلاً بمشاكل رعوية جديدة عندما تصبح المسيحية ليس فقط ديناً شرعياً ولكن أيضاً ديناً رسمياً. وسنقف أولاً عند دراسة هذه المشاكل الجديدة التي كما سنرى لا تشكل تحسناً في التقدم.

ولمواجهة هذا الضعف الناتج عن تساهلات النظام المسيحي، أخذ الأساقفة يكافحون للمحافظة في رعاية الأسرار على نفس الأصالة التي كانت للقرون الرسولية السابقة.

المشاكل المستجدة

رأينا كيف أن اوريجينوس كان يأسف نوعاً لانتهاء عصور الاضطهاد لأن المخاطر كانت تجبر الموعوظين إلى إبراز إيمان قوي ولكن مع تساهل العصر القسطنطيني ستقل الصفات الحسنة بكل أسف لصالح العدد وهذا التدهور في الحمية يبدو من خلال عدم كفاية دوافع التوبة وتأخير العماد.

عدم كفاية دوافع التوبة

إن عدم كفاية دوافع التوبة تشكل الانحراف الخطير الذي يميز هذه المرحلة فمن اللحظة التي فيها أخذت العقبات المعترضة لطريق المتقدمين للعماد تتذلل أصبح من أسهل دخـول الكنيسة وهذه السهولة من شأنها أن تقلل من حسن الاستعداد للتوبة.

إن الدوافع لمساعي المستجدين ليست دائماً نزيهة بل أكثر منها سببها منفعة شخصية فمثلاً قد يكون الدافع لطلب الدخول إلى طريق الموعوظين فقط الرغبة في الزواج من شخص مسيحي. فإذا كانت هذه الرغبة نقطة انطلاق فقد يضطر بعضهم إلى أن يتظاهر بالإيمان الذي ليس فيه وليست تلك الحالات نادرة، لذلك فقد اجتهد كيرلس في أورشليم ليميز بين المتقدمين الذين يقيدون أسماءهم في سبيل نيل العماد.

كيرلس الأورشليمي (الكرازات ١٧/٣٥-٣٦)

"لا يوجد بينكم أي سمعان الساحر (أع ٨/٩-٢٤) أو أي نفاقٍ أو أي محاولة في غير محلها (لتملك) الأسرار. ويحدث أيضا أن يؤتى به لسبب غريب ويحدث أيضا إن أحدكم جاء ليروق عين امرأة ويكون ذلك سبب مجيئه ولنقل أيضا إنه في المقابل يحدث نفس الشيء للنسوة وكثيرا ما عند إرضاء سيدة".

وقد ذكر كيرلس رغبة المتقدم لنيل رضى معلم أو صديق وقد يكون بعض هؤلاء الأصدقاء في مراكز عالية مما يدفع بعض الأشخاص إلى طلب العماد لأسباب طموح سياسي : ذلك لأن مراسيم القبول في طريق الموعوظين تجعل الشخص

مسيحياً فتنفتح له أبواب الوظائف العامة وأسقف ميلانو امبروزيوس يندد بشجاعة بهذه الطريقة.

امبروزيوس (عظة عن المزمور ١١٨، ٢٠/٤٨-٤٩)

"هذا الشخص جاء إلى الكنيسة لأنه يبحث عن مراتب الشرف والتكريم عند الإمبراطوربين المسيحيين فيتظاهر بأنه يطلب المعمودية باحترام مزيف. ينحني ويركع ولكنه لا يثني ركبته روحيا.

ويقول أن الأمر الخطير في هذا كله هو النفاق والخداع.

امبروزيوس (خطاب ٤٧-١٧)

"وللحصول على زوجة يرفض أهلها المسيحيون إعطاءها لهم – لأنهم كانوا وثنيين – يتظاهر البعض لوقت أن عندهم إيمان ثم يظهرون أن ما اعترفوا به ظاهرياً كانوا ينكرونه في سريتهم".

وفي مواجهة هؤلاء المنافقين يعرض اوغسطينوس حالة شخص يريد بإخلاص أن يصبح مسيحيا وليس للفوز بيد فتاة مسيحية يرغب في أن يتزوجها ولذلك فهو ينصح بالبحث عن الأسباب التي تدفع الإنسان لطلب الكرازات.

اغوسطينوس (عن تعليم الدين ٥/٩)

"هل ينتظر من رغبته في أ، يصبح مسيحياً الحصول على مزايا من أشخاص يخشى عدواتهم وفقدان رعايتهم؟ لا يرغب في أن يكون مسيحيا بل يتظاهر هكذا. من المفيد طبعاً أن نستعلم مقدما من الأشخاص الذين يعرفونه عن عقليته وعن الأسباب التي دعته للمجيء لتلقي التعليم الديني. هل تقدم والخداع في قلبه طمعا في مزايا أو تهربا من مضايقات؟".

تأخير العماد

إن التدهور في أسباب التوبة زاد من عدد المتقدمين لاعتناق المسيحية من خلال الدخول إلى طريق الموعوظين دون أن يحظوا بإيمان كاف. وبسبب هذا في نفس الوقت انحرافاً ثانيا عكسياً وهو أن يبقى موعوظاً إلى ما لا نهاية ويؤجل دائماً قبول العماد فإنهم إذ حصلوا على لقب مسيحي فليس فيهم أي رغبة صادقة لنيل العماد.

والقضية تمس بداهة الأطفال الذين يقودهم والداهم إلى الكنيسة ليكونوا موعوظين ولا يقوم أحد بعد ذلك بتنمية إيمانهم المسيحي فسيظلون هكذا موعوظين طول حياتهم ما لم يحدث فيهمم تحويل حقيقي إذا ما كبروا.

وكان باسيليوس وغريغوريوس النزيانزي واغوسطينوس وكثير غيرهم في مثل هذه الحالة.

فاغوسطينوس منذ نعومة أظافره رُسم بإشارة الصليب وتملح بملحه ؛ وعندما أصابه المرض فكروا في تعميده ولكن

عوفي فتأخر عماده الذي ناله وسنه ثلاثاً وثلاثين سـنة أي بعـد توبته.

ولكن ماذا عن البالغين الذين أصبحوا موعوظين ولـيس لديهم أي رغبة في العماد؟ إنهم يحملون اسم المـسيحيين علـى غير مسمى لأنهم لم يتوبوا ولا يزال الأساقفة ينددون بشدة بهـذه التجاوزات.

وفي الغرب يحاول الوعاظ عادة بمناسبة عيد الغطاس أن يوقظوا هؤلاء الموعوظين الغارقين في سبات عميق حتى يسجلوا اسمهم في بدء الزمن الإربعيني لنيل العماد الذي يمنح فـي عيـد القيامة التالي ولكن غالباً ما يبقى دعاؤهم بلا جواب.

إن ألم أسقف مثل امبروزيزيوس لعميق إذ يكتشف وهـو يشرح الصيد العجائبي من إنجيل لوقا ٥/٥ أن لا أحد استجاب له.

امبروزيزس (تفسير لوقا ٧٦/٤)

"أنا أيضاً يا رب أعلم أنني في ظلام عندما لا تأمر. لـم ينتسب بعد أحد والظلام يحيط بي. ألقيت شبكة الكلمة فـي عيـد الغطاس ولم أصطد شيئاً".

وإن بازيليوس يدعو بإصرار الذين حبل بهم (بـدخولهم إلى طريق الموعوظين) حتى يقتربوا من السر الذي سيلهم إلـى النور.

باسيليوس (عظة ١٣ عن المعمودية)

"أما وقد وُعظت منذ صغر سنك ألا توافق بعد على الحقيقة ؟ أنت يا من لم تكف عن الدراسة ألم تصل بعد إلى المعرفة ؟ أنت يا من تتحسس الحياة مستكشفاً حتى الشيخوخة هل تصبح أخيراً مسيحياً ؟ احذر من أن تفاجأ بارتباطك بوعود أطول من حياتك. فأنت لا تعلم ما يجئ بعد الغد ولا تعد بما لا تملكه. ونحن ندعوك للحياة يا رجل لماذا تهرب من الرد ؟ لو كنت أوزع ذهباً للجماعة لن تقول سآتي غداً ولكنك تطالب بحصتك من التوزيع ولا ترضى أن يتعداك أحد وعندما يعرض عليك الموزع ليس مادة براقة بل طهارة النفس تتلمس الأعذار وتعدد الأسباب في حين أنه يجب عليك أ، تحضر التوزيع. اتكل على الرب. اعط اسمك وسجل نفسك في الكنيسة، سجل اسمك في هذا الكتاب للمشاركة في التسجيل في كتاب السماء وتعلم وأدرس دستور الإنجيل. اقتل الخطيئة. أصلب نفسك مع المسيح وانقل حبك كله إلى الرب".

وكل جهد غريغوريوس النزيانزي ينصب على الاستدلال بأن ليس هناك أي داع لتأجيل العماد.

غريغوريوس النزيانزي

"فلنعمد اليوم حتى لا نضطر لذلك غداً. لا تؤجل خيرات المعمودية كأنها ستضرنا. لا ننتظر أن تتزايد خطايانا ليزداد غفراننا. إن في ذلك مضاربة تجارية في المسيح. وحمّل أكبر من طاقتنا ومجازفة نرى فيها سفينتنا تغرق جسداً وخيرات وهكذا نفقد في هذا الغرق ثمار النعمة التي لم نرتض بها".

وكذلك يعتبر غريغوريوس النيسي إن العلل المقدمة سيئة للغاية لأن ما يوقف هؤلاء الرجال هو رفضهم لتجنب الخطيئة وذلك من وراء التظاهر بالتواضع فيشبههم بالخادم الكسول الذي يخفي وزنته. ويذكر أيضاً اغوسطينوس أنه لا يكفي للإنسان أن يحبل به ولكن لابد له أن يولد ليصل إلى الحياة الخالدة.

ويوحنا فم الذهب يكافح بعنف عادة تأجيل العماد إلى الرمق الأخير ويكتب :

"أليست هذه أقصى درجات الجنون أن يؤجل العماد ؟ اسمعوا أيها الموعوظون وكذلك أنتم الذين يؤجلون خلاصهم إلى النفس الأخير".

إن مثل هذا القصور يسبب شكوكاً عند الوثنيين الذين يسخرون فإذا اقتنع الشخص بعظمة السر فلماذا ينتظر ساعة المرض؟ إنه يشبه الجندي الذي ينتظر نهاية الحرب حتى يتطوع.

وفي الواقع فإن هذه العادة تكشف لنا إلى أي مدى من الضعف وصل طريق الموعوظين حيث فقد لقب "الموعوظ" دلالته العميقة إذ أنه لا يحتوي على توبة حقيقية فكيف يستغرب إذن من تدهور هذا الطريق.

إن الأساقفة الذين صدمتهم هذه اللامبالاة العامة يدفعون الموعوظين دفعاً إلى العماد ولا يأبهون بخطر الشكليات.

وقد كثر الحديث عن الموعوظين في هذه الحقبة من الزمن ولكن إذا كان هناك كثير من الموعوظين فإن التائبين الحقيقيين قليلون.

سواء أكان الأمر يمس الأطفال الذين مع تعلمهم مبادئ الإيمان لم يقبلوا الحقيقة بعد، أم البالغين الذين جاءوا إلى الكنيسة بدوافع غير كافية فقد صار اللقب لا يمثل الواقع كسابق عهده ومع ذلك فقد ظل الرعاة يذكرون بالمتطلبات اللاهوتية لرعاية أصلية للأسرار.

استمرار الاهتمام بالأصالة

يفيدنا ذكر الجهد الشاق الذي حققه الآباء في القرنين الرابع والخامس حتى لا يدعوا أنفسهم ينساقون إلى منحدر قاتل. وهم أول من اعترفوا بوجود نوع من التدهور ليس فقط في تأجيل البالغين لعمادهم بل أيضا في ضعف القساوسة الذين يتساهلون، في قبول للعماد، أناسا يدعون أنهم مؤمنون ولا يعيشون حياة مسيحية.

وأمام هذه التجاوزات لا يترددون في ذكر العقيدة التقليدية التي تقضي بأن الخلاص لا يوهب في السر إلا للذين لديهم إيمان صادق وحياة مطابقة لهذا الإيمان وينتج عن هذين المطلبين ضرورة إيجاد تنظيم جاد لطريق الموعوظين.

ضرورة إيمان عميق

إن الأساقفة المسؤولين على وعظ الموعوظين يذكرونهم أولاً أن الإيمان مرتبط بالسر ارتباطاً وثيقاً ولا يصوغ أن يمنح هذا إذا فقد ذاك. و"في الواقع الإيمان والعماد مرتبطان بعضهما

من بعض وهما طريقا الخلاص ولا ينفصلان. فإنه إذا كان الإيمان يكتسب كماله من العماد فإن العماد قاعدته الإيمان". يكتب

باسيليوس القيصري

قال الرب : اذهبوا وعلموا الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. فالمعمودية هي فعلا ختم الإيمان والإيمان اتحاد بالله فيجب إذن أن نؤمن أولا ثم نختم بالمعمودية.

ويستند أثناسيوس وجيروليموس أيضاً إلى أمر المسيح قبل صعوده ليذكرا هذا المطلب نفسه.

لم يأمر الرب بأن نعمد فقط بل قال أولاً : علموا ثم عمدوا حتى ينبع من التعليم الإيمان القويم ومع الإيمان نلقن الأسرار.

يعلم الرسل أولاً جميع الأمم. وإذ علموهم غسلوهم بالماء. فعلا لا يصح أن يقبل الجسد سر المعمودية إذا لم تكن الروح تقبلت حقيقة الإيمان من قبل.

إن إحدى غايات طريق الموعوظين هي بالذات تنمية الإيمان عند الذين لم تصل نعمة الإيمان إلى الدرجة الكافية لقبول ملكوت الله.

وهذا المطلب وحده بضرورة إيمان ناضج لقبول العماد يكفي للحث على إيجاد تعليم سابق للعماد وفيه جدية. ولكن هناك مطلب آخر يؤكد فائدة فترة معينة للتكوين السابق وهو أن الإيمان الذي يفتح الباب لعماد الميلاد الجديد ليس إيمانا مائتا حيا يتضمن حبا حقيقيا.

ضرورة وجود حياة مطابقة للإيمان

اضطر أغوسطينوس إلى كتابة دراسة كاملة عن الإيمان والأعمال لينتقد العادة التي أخذت تتبع في بعض الأماكن لتعميد الخطأة.

يقول إنه مرفوض بتاتاً القبول لحمام التجديد، الذي يتم بالمسيح يسوع ربنا جميع المرشحين من غير تمييز حتى ولو كان سلوكهم الفاسد وفضائح أخطائهم معروفة للجميع وإذا رفضوا التغيير وأعلنوا على الملأ نيتهم في الاستمرار.

ولا يلتمس أحد العذر فيقول : "سيتعلم فيما بعد شر ذلك وبعد العماد يتعلم كيف يضبط سلوكه" لأن عادة مثل هذه مخالفة لعمل الكنيسة.

فلنحاذر بمعونة الرب أن نعطي الناس طمأنينة كاذبة بقولنا إنه إذا اعتمدوا بالمسيح مهما كان سلوكهم في هذا الإيمان سيبلغون الخلاص.

وهذا هو الموضوع الأساسي الذي يتكرر في كثير من خطب الزمن الأربعيني في هذه الحقبة. لا تستطيع الحياة العمادية أن تنفذ إلا إلى الذين رذلوا كل نفاق واعتادوا أن يعيشوا طبقاً للإنجيل.

ويقول:

كيرلس الأورشليمي

وهنا فإن وجود جسمك دون عقلك لن يجدي. ففي ذات يوم تقدم سمعان الساحر هو أيضاً للمعمودية. غطس ولكن لم

يستتر. غُطس جسده في الماء ولم يضمن نور الروح لقلبه. نـــزل جسده وصعد ولكن روحه لم توضع في القبر مع المـــسيح ليقـــوم معه. فإذا بقيت في نزعتك الشريرة فإن من يتكلم لـــيس مـــسئولا ولكن لا تنتظر أنت أن تنال النعمة سيقبلك الماء فعلاً وإنمـــا الروح لن يزورك (يستقبلك).

وفي عظته الثانية إلى الذين سوف يستتيرون يـــستخلص يوحنا فم الذهب نتيجة عملية من هذا التعليم التقليدي.

كنت أقول ومازلت أقول اليوم ولم أكف عن ترديد ذلك : ما لم يصلح أحدكم من أخلاقه التي يرثى لها ولم يتمـــرن علـــى الفضيلة ليسهلها فلن يعمد. انظروا إلى روحكم كأنها صورة يجب أن ترسم. قبل أن يجيء الروح القدس ليمر عليها بفرشاته الإلهية امحوا عاداتكم السيئة.

ولا يخشى غريغوريوس النيـــسي أن يؤكـــد أن العمـــاد الممنوح لشخص غير مستعد ليس فقط عبثاً بل هو إهانة إلـــى الله نفسه.

إذا أعطى الجسد الحمام دون أن تمحي النفس قـــاذورات اضطراباتها وأهواها مهما بلغت هذه الكلمة من القسوة أريـــد أن أقولها دون مواربة : الماء الذي أعطي لهم هـــو مـــاء لأن هبـــة الروح القدس لن تصل بأي حال من الأحوال إلى من ولد هكـــذا. إن قذارة النفس إهانة في وجه الرب.

في غرة القرن السادس طرق نفس الموضوع في عظات "سيزار دارل" الموجهة للمتقدمين للعماد.

إن ما جئتم تطلبونه شيء حسن شيء عظيم سعادة فائقـــة وهناء أبدي وأنبهكم إذا نظراً لأهمية الشيء الـــذي تنـــشدونه أن

تجهزوا بكل أمانة بعونٍ الله قلبكم وروحكم أيضاً. إذا أراد الله أن يقدم لكل واحد منكم ثياباً من حرير لا يمكنكم أخذها بأيد قذرة ونجسة. فكم بالأحرى عندما يقدم هو ذاته إليكم ألا يجب أن تستقبلوه بقلب مطهر بالإيمان. فإذا كان حب تعاليم الرب : لا يضع المرء الخمر الجديدة في زقاق قديم كيف يمكن استقبال الله ذاته لمن لم يرد محو كل أوساخ سلوكه القديم.

فمن القرن الرابع إلى السادس أقام الأساقفة بحزم المبادئ اللاهوتية لرعاية الأسرار في حين كان السلام القسطنطيني يهدد بجذب الموعوظين إلى منحدر زلق.

كيف توافق تنظيم طريق الموعوظين مع المواقف الجديدة ؟ هذا ما سنقوم الآن بدراسته.

وسيظهر لنا وصف النظام التعليمي نحو سنوات ٤٠٠ كيف أن الكنيسة حاولت أن تحتفظ بالتمييز السليم بين الرحمة والتسيب. وقد أدرك أغوسطينوس أن التطرف "الدوناتي" الذي يهدف إلى تكوين كنيسة الأطهار هو خطير مثل ترك التنظيم الكنسي.

وفي المسائل الرعوية يجب تزاوج الحزم بالطيبة دون أن نظهر ضعفاء بحجة الصبر ولا قساة بحجة الحماس الديني.

طريق الموعوظين نحو سنوات ٣٥٠-٤٢٠

ماذا عن مراحلِ التنشئةِ في سنوات ٥٠ – ٤٢٠؟ إليكم صورة ستكشف تدهوراً واضحاً في طريق الموعوظين وسيحاول تكوين جديد للزمن الأربعيني أن يعالج الأمر.

ففي الظاهر يبدو من العبارات المستعملة أن تنظيم طريق الموعوظين مازال يتمتع بحيويته. وتؤكد بعض العظات أن التوبة طريق ذو أربع مراحل : في الماضي عندما كنا وثنيين وصلنا إلى التوبة ببشارة الإنجيل ثم أصبحنا موعوظين ثم كان التكوين المركز للمختارين أثناء الزمن الأربعيني ثم العماد.

ويوضح ذلك تماماً شهادة الأسقف الأسباني غريغوريوس دلفير.

أمر الرب نوح أن يصنع سفينة ذات ثلاث غرف، صورة الكنيسة. فأولاً تدخل كلمة الناموس في الموعظ كدخولها الجسد. ثم يدخل السر المقدس في "Competens" (= الذين يطلبون العماد معاً) ليختبئ في سر روحه كما في حانوت الكتان. وفي المرحلة التالية يصل الروح المقدس في المؤمن بواسطة درجات الفضيلة كما يصل إلى الأدوار العليا للمنزل.

يؤكد ذلك أيضاً بأسلوب تصويري نص رائع للقديس أغوسطينوس يستند إلى التشبيه بين القمح الذي يدرس ويخزن ويصير عجيناً وفي النهاية خبزاً.

جيء بكم إلى حظيرة الرب وعجنتم بجهد الأبقار أي بمن بشركم بالإنجيل. وعندما أصبحتم موعوظين ترسا من التروس. أعطيتم أسماءكم وبدأتم تتشكلون بالصوم والتعازيم.

وبعد أن جئتم إلى النبع عُمِّدتم فأصبحتم جسداً واحداً. طُبِختم بنار الروح القدس فأصبحتم خبز الرب.

فالتعبير لا يتغير عنه في القرن الثالث فيما يخص مراحل التعليم ولكن ما هو الواقع الذي يعنيه هذا التعبير ؟

هل لنا أن نتحدث بعد عن طريق الموعوظين ؟

إننا نتذكر الأسلوب الجدي المتبع قديماً في امتحان القبول إلى الكرازات، ذاك الامتحان الذي كان يدخل الطالب إلى الكنيسة بعد اختبار نوعية مسعاه. أما في القرن الرابع يبدو أن المراسيم مازالت قائمة ولكنها نادراً ما تمثل عاقبة عميقة وخالصة.

اعتاد الأهل أن يقدموا أولادهم للقسيس ليقبلهم بين الموعوظين. والطقس الأساسي هو إشارة الصليب التي ترافقها في أفريقيا تذوق الملح ولكن حالة البالغين هي التي لابد من فحصها عن قرب.

إننا نملك بعض المستندات التي تشهد بوجود هذا الطقس : إشارة الصليب مع وضع الأيدي ولكن يبدو أنها لا تهتم إلا بالتحولات المعجزة ويبدو من قراءتها أن دور الكنيسة والمسيحيين كان قليل النشاط.

وهناك ثلاث مؤلفات شرقية قد توحي لنا أن الممارسة التي تحدث عنها هيبوليتوس مازالت حية وهي "قوانين هيبوليتوس" (في مصر نحو سنة ٣٦٠) و"عهد سيدنا يسوع المسيح" (في سوريا، في القرن الرابع) و"الدستور الرسولي" (في سوريا في القرنين الرابع والخامس) وكلها تذكر ضرورة الامتحان للقبول في صفوف الموعوظين.

ولكن هذه المؤلفات استوحت مادتها من التقليد الرسولي لهيبوليتوس مباشرة.

فهي تذكرنا بمثل أعلى ولكنها لا تشهد بوجود ممارسة فعلية إلا في بعض التفاصيل بالذات التي تختلف عن مصدرها.

هناك مستند واحد يمكن تقديمه كشاهد إثبات وهو مؤلف أغوسطينوس حول تعليم المبتدئين الذي فيه يصف طقوس الدخول إلى طريق الموعوظين بهذه العبارات.

وعند الانتهاء من هذا التعليم يسأل المرشح إذا كان يؤمن بهذه الحقائق ويريد أن يكيف حياته بموجبها. فإذا أجاب بنعم يجب حسب الطقس رسم علامة الصليب عليه ومعاملته حسب عادة الكنيسة (ثم يلي ذلك طقس الملح الذي يجب شرحه).

إن منح هذه المراسيم يفترض إشهار الإيمان سابقاً. فلابد أن يوافق الطالب على العرض الشامل للحياة المسيحية التي عرضت عليه ويرفض خدمة الأوثان.

فالمبدأ إذن سليم ولكن الواقع أنه لم يتم دائماً تعليم إنجيلي كاف. فإن البعض منهم قد قرأوا الكتاب المقدس شخصيا، أما البعضُ الآخر فيأتون بدون استعداد وأحياناً بروح سيئة. كيف يستطيع تعليم بدائي للغاية انحصر في محادثة لا تستغرق أكثر من ساعتين أن يخلق تحولاً في شخص ما ؟

ولا يسعنا إلا أن نسلم بأن الموقف قد تغير كثيراً بالنسبة إلى القرن السابق وبالرغم من العدد الكبير من مؤلفات الآباء في القرن الرابع فإننا نملك شهادات قليلة حول جدية امتحان القبول في طريق الموعوظين وذلك لأن المراسيم تمنح بسهولة وقد يستعملونها كطعم بينما كان يلزم أن تكون جزاء للتوبة حتى إذا خلت التوبة الحقيقية صارت هي بلا معنى. وهذا يفسر سبب إحجام الموعوظين عن تكوينهم بغية قبول العماد.

ماذا بقي من طريق الموعوظين ذاته ؟

إن زمن الكرازات يختلف كثيراً فإن الموعوظين الذين لم يقتنعوا إلا قليلاً يؤجلون العماد أبداً. أما الذين عقدوا العزم فإنهم يصلون إلى المعمودية بسرعة. وقد رأينا أنه في بدء القرن الرابع بأسبانيا كان الأساقفة يطالبون بسنتين كرازة ولكن نحو سنة ٤٠٠ يبدو أن ليس هناك أي تحديد للوقت المطلوب. وقد اختفى طريق الموعوظين فيذهب أو لا يذهب الموعوظون إلى سماع الكلمة حسب درجة اقتناعهم ولا يهتم بهم المسؤولون عن قرب في جماعات منظمة.

ويبدو أن الكنيسة مهمتها أن تدفع المتقدمين الكسالى إلى العماد أكثر منها بأضعاف ماس المتقدمين القليلين المتسرعين بواسطة وقت طويل للاختبار. وإذا وجد شخص على أتم الاستعداد فإنها تقبله سريعاً في الطريق. ومع ذلك فالكنيسة تحافظ مبدئياً على ضرورة وقت ما للتعليم كما ذكر ذلك أغوسطينوس في مؤلفه عن الإيمان والأعمال.

ماذا يحدث أثناء احتفاظ الموعوظين بمكانهم واسمهم. نعلمهم كيف يجب أن يكون الإيمان وسلوك المسيحي. وبعد أن اختبروا أنفسهم يمكنهم أن يأكلوا على مائدة الرب ويشربوا من كأسه. فإذا دام هذا التعليم الوقت الذي حددته الكنيسة بحكمة فليدرج المرشحون باسم المسيح في صفوف الموعوظين ثم تزداد جرعات هذا التعليم عندما يقيدون أسماءهم لتقبل المعمودية ويدعون حينئذ (Competentes)، أي الذين يقدمون الطلب معاً.

هذا هو المبدأ ولكن ما هو الواقع ؟ أن الموعوظين القليلي الاقتناع لم يحضروا كثيراً حلقات الكرازات إذا أخذنا في الاعتبار مضامين الخطب في بدء الزمن الأربعيني.

أما الذين سجلوا أسماءهم للعماد المقبل فيجب أن يكملوا في تعلم مبادئ التوبة وسلامة النية وتحول الأخلاق.

ومن العبارات التي استعملها كيرلس الأورشليمي في التعليم نرى أنه يخاطب الموعوظين وقد نشك أنهم نالوا قسطا وافرا من الطريق – وحتى إذا كانوا قد حضروا بعض الدروس فمن الواضح أنهم لم يفهموا المتطلبات الحيوية لكلمة الله.

نحن خدام المسيح رحبنا بكل واحد وقمنا بدور البوابين فتركنا الباب مفتوحا فمن الممكن أنك دخلت بروح ملطخة بالخطايا وبنية فاسدة. فإذا كانت روحك لابسة النجس فادخل بلبس آخر. اخلع اللبس الذي لبسته ولا تضع شيئا فوقه. اخلع أرجوك الفسق والدنس والبس لبس الطهارة الناصع.

لديك مهمة طويلة : توبة مدة أربعين يوماً. كنت تسمى موعوظاً عندما كنت تحت تأثير صدى. وكنت تسمع عن أمل لا تراه وعن أسرار لا تفهمها وعن كتاب مقدس لم تميز عمقه. والآن لا يتردد الصدى حولك وإنما يدق فيك.

وحتى ثلاثين يوماً قبل العماد اضطر يوحنا فم الذهب إلى أن يدعو الموعوظين إلى تغيير جذري في الأخلاق. فهل كان يقوم بذلك لو كان الموعوظون عاشوا حياتهم بجدية وهم في الطريق ؟

أيها الرياضيون الشباب إن المضمار مفتوح والمشاهدين على درجات المدرج وعلى رأسهم رئيس الألعاب. حينئذ ليس هناك موقف وسط : إما أن تقعوا بجُبن وتنسحبوا وقد غطاكم العار أو تتصرفوا بشجاعة فتنالوا الإكليل والجائزة. وهكذا فإن الثلاثين يوماً هذه تكون بمثابة صراع وإعداد وتمرين.

نعم إن الحاجة ماسة إلى تغيير أسلوب الحياة. إن الواعظ ليشعر بذلك وهو متشوق ليرى النتائج الملموسة ذلك بأنه يقول بعد ستة أيام :

يا اخوة، قد كلمتكم منذ أيام قليلة وهأنذا جئت أطالبكم بثمار تعاليمي فنحن لا نتكلم لآذانكم فقط ولكن لروحكم أيضاً لكي تحفظ كلامنا وتظهروا لنا ذلك بأعمالكم أو بالأحرى لا تظهروها لنا بل لله الذي يعرف عمق قلوبكم. لذا نسمي تعليمنا "وعظاً" لأنه يجب حتى في غيابنا أن يتردد صدى كلامنا في نفوسكم. فيا من قبلتم كلامنا ونفذتموه ثابروا وتقدموا. وأنتم يا من لم تبدأوا بعد إبتدؤوا من الآن وفلتحمكم الجهود التي تبذلونها مستقبلاً من أن تتهموا بالإهمال.

أكيد أن هذه الكلمات لم تكن تصدر من فم هيبوليتوس أو أويجينوس قبل العماد ببضعة أسابيع ولكن في القرن الرابع لم يعد طريق الموعوظين كما كان مئة سنة من قبل، ولا يبدو أن الموعوظين مقتنعون فحتى إذا جاءوا إلى الكنيسة لا يبدو أن الواعظ يؤثر بهم فليس لديهم بعد الإيمان الذي يستطيع أن يغير الحياة.

فلا يوجد منظمة خاصة تساندهم أو تطالبهم بشيء.

الزمن الأربعيني فترة وعظ تعويضية

إن الكنيسة حتى تعوض النقص الخطير في طريق الموعوظين المهمل ستستغل زمن الأربعيني للتكوين العمادي.

قيد الاسم في بداية الزمن الأربعيني

حتى تحافظ الكنيسة على مقتضيات التقدم للعماد جرت العادة أن تعتبر الزمن الأربعيني إعداداً تكوينياً مكثفاً.

إن هؤلاء الموعوظين بالاسم، إذا رضوا أن يقيدوا اسمهم سيحققون في بضعة أسابيع التحويل الحيوي الذي كان في القرن السابق يتطلب سنتين أو ثلاث سنوات.

وهذه المرحلة تفتتح بقيد الاسم احتفالياً فكأنها إعادة الاحتفال للقبول في طريق الموعوظين الذي لم يكن تأسس على توبة حقيقة ولكن بعد سنوات من السبات العميق هل أصبح الموعوظون على استعداد حقيقي لاتباع المسيح ؟

إن الذين قرروا نهائياً أن يقبلوا السر يقيدون أسماءهم لعماد عيد الفصح المقبل.

وهذا الاحتفال تصفه لنا تفصيلياً ايجيريا التي تستعرض تقليد كنيسة أورشليم نحو سنة ٤٠٠.

رأيت من الواجب أن أكتب لكم كيف يُعَلَّمون من سيعمدون في عيد الفصح. فمن يقيد اسمه يفعل ذلك عشية الزمن الأربعيني ويسجل الكاهن كل الأسماء : أي أنه عشية الأسابيع الثمانية التي قلت أنه هنا يلزم الصوم. فإذا سجل الكاهن كل الأسماء فإن الغد وهو بداية الزمن الأربعيني وأول يوم للأسابيع الثمانية يوضع للمطران كرسي في وسط الكنيسة الكبرى أي كنيسة مكان الصلب (Martyrium) وعلى جانبه يجلس الكهنة على كراس بينما يظل الشعب واقفاً، ثم يؤتى بالمرشحين واحداً فواحداً فإذا كانوا رجالاً يأتون مع عرابهم (اشبينهم) وإذا كانوا نسوة فمع

عرابتهن (اشبينتهن). فحينئذ يسأل المطران جيران الـذي دخـل: "هل يحيا حياة شريفة وهل يحترم أبويه ؟ ألا يدمن الخمر والكذب ؟ ويطرح السؤال عن جميع العيوب الجسيمة في الرجـل. فـإذا وجد أنه لا لوم على المرشح من جميع العيوب التي سـئل فـي حضرة الشهود حينئذ يسجل المطران بنفسه اسمه بيده. ولكـن إذا أدين في أي نقطة يخرجه المطران قائلاً : فلينصلح فإذا انـصلح حينئذ يقبل في المعمودية.

هكذا بالنسبة للرجال ثم يطرح نفـس الأسـئلة بالنـسبة للنساء. فالغرباء ما لم يكن معهم شهود يعرفونهم فـإن الموافقـة على قبولهم للمعمودية تكون أقل سهولة.

ويتضح من هذا المستند أن امتحان الذين يقدمون الطلـب معاً يتم بكل اهتمام ويبحث أيضاً عن أسلوب حياتهم ولكن في هذه الطقوس التي تقام في مواجهة الشعب كله هل تتقابـل المراسـيم والغاية المنشودة ؟

ونجد نفس الشيء في الوصف الذي قام به ثيـودوروس الموبسويسطي "هو يصف الاحتفال كما كان يجري في انطاكيا في العصر ذاته.

فالذي يرغب قبول نعمة المعمودية المقدسة فليتقدم لكنيسة الله فيستقبله المختص حسب المتبـع فـي تـسجيل مـن يطلـب المعمودية، ويستفهم عن أخلاقه. وهذه المهمة منوطة لمن عُمدوا بمن يدعى ضامناً. فالمختص لذلك يسجل اسمه في كتاب الكنيسة مع اسم الشاهد أو كاهن هذا البلد أو الإبراشية.

وهذا النص الذي نستقي منه أيضاً معلومات واسعة عـن الشباين يقبل بعض التحفظات. كنا قد رأينا أن يوحنا فـم الـذهب

يستقبل المتقدمين ثلاثين يوماً فقط قبل العماد. ومـــع ثيـــودوروس الموبسويسطي فإن البحث المتعمق في الخطب يجعلنـــا نفكـــر أن الاحتفال بالقيد لم يتم في أول أحد من الزمن الأربعيني بل خمسة عشر يوما قبل الفصح :

أليس هذا تأكيداً إضافياً لما لاحظناه آنفاً ؟

ففي بدء الأربعيني لا يكون المتقدمين تائبين إلا شيئاً قليلاً لذلك فإن قيدهم في الكنيسة يفترض تحولاً خالصاً وثابتاً فلا يمكن أن يتم في وقت مبكر فيلزم تأجيله أكثر فأكثر مما يقصر الـــزمن الأربعيني، وهو في غاية القصر، إلى بـــضعة أســـابيع أو حتـــى بضعة أيام.

والسؤال الذي تضعه قوانين هيبوليتـــوس علـــى شـــفاه الأسقف له دلالته ولم نكن نجده إطلاقاً قبيل العمـــاد فـــي القـــرن الثالث.

هل أنت متردد أو مجبر لسبب أو حياء بشري. لأنه مـــا من أحد يسخر من ملكوت السموات بل هو يوهب لمن يحبونه من كل قلوبهم.

الرياضة الروحية في الزمن الأربعيني

إن فترة الأربعين يوماً هي زمن تكوين عقائدي وحيـــوي ويرافق الحضور الملتزم لحلقات الوعظ تحول في السلوك وتلقـــى على الموعوظين كرازة مسلسلة ومتعمقة استعداداً لقبولهم العماد. وتصفه لنا ايجيريا وصفاً جميلاً فيما يخص كنيسة أورشليم.

ومن العادة هنا أن من يتقدم إلى المعمودية يقبل، طول الأربعين يوما للصوم طقس التعزيم صباحا باكرا من الإكليرويكيين حالما يُصرف الشعب من قبر المسيح وحينئذ يوضع كرسي المطران في الكنيسة التي في مكان الصلب ويجلس حول المطران وبالقرب منه كل من يرغب في المعمودية رجالا ونساء. ويحضر أيضا العرَّابة والعرابات وزيادة على ذلك كل من يريد الاستماع من الشعب يدخل ويجلس ولكن المؤمنون فقط. فالموعوظون لا يدخلون بينما يعلم المطران بالطريقة الآتية : بدءا بسفر التكوين يتصفح جميع الكتب المقدسة أثناء الأربعين يوما شارحا أولا المعنى اللفظي ومستخلصا المعنى الروحي. وهكذا يُعلَمون بالنسبة للقيامة والإيمان أيضا وعن كل شيء أثناء هذه الأيام. وهذا ما يسمى بالوعظ. وبعد خمسة أسابيع من التعليم يمنحهم المطران "قانون الإيمان" ويشر لهم العقيدة مثلما شرح كل الكتب المقدسة جملة جملة مبينا المعنى اللفظي ثم المعنى الروحي. وهكذا يشرح "قانون الإيمان". وينتج عن ذلك في هذا البلد أن جميع المؤمنين يتبعون الكتب المقدسة عند قراءتها في الكنيسة لأن الجميع تعلموا أثناء الأربعين يوما هذه من الساعة الأولى حتى الساعة الثالثة حيث أن الوعظ يستغرق هذه الساعات الثلاثة. وهكذا يتم التعليم ثلاث ساعات يوميا مدة سبعة أسابيع.

وتضيف بعض الكنائس إلى الكرازة في الكتاب المقدس و"قانون الإيمان" كرازة في "أبانا الذي".

فقد كانت تقام الحفلتان المدعوتان "التسليم" في نهاية الأربعيني حيث كان قانون الإيمان والأبانا يسلمان للمرشحين للعماد وفي أورشليم يردد المرشحون قانون الإيمان في أحد السعف عادة.

وعلى مدى هذا التكوين يهب الله قوته للمرشحين للعماد من خلال المراسيم الدينية وخاصة الصلوات لطرد الشيطان التي ذكرتها ايجيريا آنفا.

ويقول الأسقف الأفريقي "ما شاء الله" إن جميع الممارسات الليتورجية وطقوس التوبة التي تتم في الزمن الأربعيني لابد أن تعتبر كغذاء تهيئه الأم – الكنيسة للأولاد الذين تحملهم في أحشائها وستضعهم في عيد الفصح.

جميع الطقوس الدينية التي تعمل عليكم بواسطة خدام الله : التعازيم والطلبات والمزامير والنفخ والمسح وإحناء الرأس والركوع، كل ذلك كما قلت هو غذاء الأم التي تطعمكم من صدر لتتمكن من أحيائكم مرة أخرى من ماء المعمودية وتقدمكم إلى المسيح متهللين سرورا.

وفضلاً عن الصلوات اليومية لطرد الشيطان التي يقوم بها القساوسة على مجموعة المتقدمين فإن هناك صلاة نهائية لطرد الشيطان تتم احتفالياً على يد الأسقف ويتخللها المسح بالزيت.

وبهذه المراسيم يفحص الله أعماق قلوب المرشحين ليطرد منها آخر ما فيها من نجاسة. ولكن الله الذي يحرر من الروح الشرير لا يعمل إلا في القلوب التي قررت أن تحيا حياة مطابقة للإنجيل ولذلك يسر أغوسطينوس على المشاركة الشخصية في هذا الاحتفال الذي يعتبر معركة حقيقية ويصفها ثيودوروس الموبسويسطي مع شرح طويل حيث يتحقق معنى رمز الرداء (من العري إلى غلالة الكتان) والأوضاع (وقوفا، وأيد مرفوعة إلى الله، ثم سجوداً).

وهذا هو الرفض النهائي للشيطان الذي كان قد اتخذنا له عبداً وهو أيضاً عهد التحاق بالمسيح رئيس الحياة الوحيد.

بعد قول "اتخلى عن الشيطان وملائكته وخدمته وغروره وكل ضلاله الدنيوي" تقول "أتعهد نذرا وآمن وأنا معمد باسم الآب والابن والروح القدس" وكما إنك عندما تقول "أتخلى" تمتنع نهائيا تبين أنك من الآن فصاعدا لن تعود ولن تطيب لك صحبته أيضا. وعندما تقول "أتعهد نذرا" تبين أنك ستظل ثابتا قـرب الله وأنـك ستكون معه راسخا ولن تتحول عنه بأي شكل من الأشكال وأنـك تعتبر من الآن فصاعدا إن حياتك وحديثك معه والامتثال بناموسه أثمن بالنسبة لك من أي شيء.

وهذه الأمانة التي رسمت عليك الآن دلالـة علـى أنـك ختمت كنجمة المسيح وكجندي "لدى ملوك السماء.

في البدء طبعاً تكون عرياناً لأن هكذا منظـر الأسـرى والعبيد وعندما تختن تفرد على رأسك ستاراً من كتان دلالة على الحالة الحارة التي دعيت إليها.

الإحياء الفصحي

إن الاحتفال بالعماد الذي بدأ أثناء الزمن الأربعيني يدخل مرحلته الأساسية في أسبوع الآلام.

الاحتفال الفصحي

يبدأ الاحتفال الحقيقي بالعماد ليلة الفصح ويستمر طوال السهرة الفصحية. إن عيد قيامة المسيح أفضل يوم للاحتفال بالسر الذي يجعلنا نموت مع يسوع ونقوم أحياء معه.

لا يدخل في نطاق هذا البحث وصف الطقوس تفصيلياً ولكنا نؤكد أن الاحتفال بالتنشئة هذا، الذي يحوي الأسرار الثلاثة وهي العماد والتثبيت والافخارستيا كوحدة متماسكة، هو عيد الجماعة المسيحية كافة.

وإليكم كيف يصف يوحنا فم الذهب فرحة هذا الاحتفال الفصحي.

وعندما يخرج المستجدون في المسيحية من الأحواض المقدسة يضمهم جميع الحاضرين ويحيونهم ويعطونهم قبلة مقدسة ويهنئونهم ويشاركونهم بهجتهم لأنهم إذ كانوا أسرى وعبيداً فيما مضى أصبحوا في لحظة أحراراً، أبناء على المائدة الملكية. وبالفعل فإنهم حالما يخرجون من الأحواض يؤتى بهم إلى المائدة الرهيبة، ينبوع آلاف النعم ويتذوقون جسد ودم الرب ويصبحون مقر الروح. لبسوا المسيح ذاته وإذ هم كذلك فإنهم حيث يذهبون يَبْدون مثل ملائكة أرضيين متألقين كضوء الشمس المبهر.

تكون كنيسة الله في بهجة بسبب أولادها وفعلاً فكما تبتهج الأم الحنونة التي ترى أطفالها يحيطون بها ولا تعد تتمالك نفسها من الفرح كذلك تبتهج الكنيسة بأمومتها الروحية إذ ترى نفسها كحقل خصب مُحمَّل بسنابل روحية.

ومن ثم يدعى المعمدون الجدد مؤمنين لأن إيمانهم ختم بالروح القدس.

ولكن لا يكفي أن يحافظوا فقط عليه بل ينموه باستمرار.

يوحنا فم الذهب (الكرازة الثانية للمستنيرين)

قلد الله حسب قدرتك وأوامره في جميع ما عهد به إليك. أضف إلى القداسة التي استلمتها. اجعل عدالة الله ونعم معموديتك تتلألأ وتبرق أكثر فأكثر.

اعمل مثل القديس بولس الذي كان يضيف كل يوم بأعماله ونشاطه وغيرته إلى الكنوز التي وهبها الله له.

حياة جديدة

خلال الأسبوع الذي يلي مباشرة الاحتفال بالعماد يعود المتعمدون يومياً إلى الكنيسة ليسمعوا تعليقاً على الأسرار التي قبلوها فهذه هي الكرازات الأسرارية (عن الأسرار التي نالوها) التي تقول عنها ايجريا أنها تثير الحماس.

لا يدخل إليها إلا المستجدون والمؤمنون الذين يريدون سماع الكلمة. وتقفل الأبواب حتى لا يقترب الموعوظون وبينما يعالج المطران هذه المسائل ويعرضها تطلق أصوات استحسان عالية لدرجة أ، الأشخاص الذين خارج الكنيسة يسمعون الناس يصرخون.

عما يتحدث الأسقف ؟ في بعض الكنائس يشرح الواعظ لحديثي العماد طقوس التنشئة المختلفة لتوعيتهم بالواقع الذي اختبروه، وفي كنائس أخرى تتركز الكرازات أكثر على المتطلبات الأخلاقية المطلوبة من حياة مسيحية حقيقية وفي الحقيقة لم تكن لطريق الموعوظين غاية أخرى إلا أن تقودهم إلى الميلاد الجديد.

ومن ثم لم يكن العماد نهاية الطريق بل بداية حياة مع المسيح وفيه.

يوحنا فم الذهب (الكرازات ٤/٤)

يقول الرسول : "أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم" فمن الآن فصاعداً فليعمل وليتصرف الذين عُمدوا مؤخرا كأن المسيح، خالق العالم وسيِّد طبيعتنا كان معهم دائماً. وعندما أقول المسيح أعني أيضاً الآب والروح القدس.

قلدوه أنتم أيضاً أرجوكم وحينئذ يمكن أن تسموا مستجدين ليس ليومين أو ثلاث أو عشرين ولكن يمكن أن تستحقوا هذا الاسم بعد عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة وفي الحقيقة طوال حياتهم.

وذاك هو معنى الرداء الأبيض الذي يرتديه حديث العماد. فهو يدعو إلى قضاء الحياة طبقاً للمسيح لكي تكون شهادة مستمرة أمام الناس.

يوحنا فم الذهب (الكرازات ٥/٢٠)

فمن العدل أن الذين معهم المسيح ليس مرسوماً على ثيابهم بل قائم دائماً في نفوسهم ومعه أبوه وروحه القدوس حاضر، أن يبرهنوا بتأكيد ثابت ويظهروا للجميع بدقة سلوكهم ومراقبة حياتهم أنهم يحملون الصورة الملكية.

الحكم على القرنين الرابع والخامس

بعد هذا الوصف السريع لممارسة طريق الموعوظين في القرنين الرابع والخامس ما هي الدروس التي نستخلصها من هذا التطور ؟

إن حكمنا يجب أن يستند إلى النقد، ويميز النواحي السلبية منها والإيجابية.

النتيجة السلبية

بالنسبة إلى ممارسات القرن الثالث لنا ملحوظتان تظهران تقهقراً في صفة رعاية طريق الموعوظين.

الملحوظة الأولى : اختفاء طريق الموعوظين.

وقد أوردنا أسبابه وهذه هي النتيجة

أن الدخول في طريقِ الموعوظين فقد سمته كسعي إلى الإيمان ولم يكن التبشير عميقا فلم يستعد المتقدمون لسماع الكلمة. وليسوا حقيقة من التائبين فهم يدخلون إلى كنيسة يستشعرونها كمنظمة عادية وينتظرون منها فقط بعض المزايا البشرية وهم يجهلون مبدأ وجودها ذاته الذي هو اشتراك في الإيمان الذي بسببه لا يقبل فيها إلا المؤمنون بالمسيح.

إن غياب الإيمان ترافقه اللامبالاة بتوبة من النوع الإنجيلي.

فتنطفئ حرارة الجماعات ويؤجل بلا حد فيعاد قبول العماد، ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن الانخفاض في قيمة الدخول إلى طريق الموعوظين أدى إلى انخفاض في قيمة الطريق نفسه ذلك بأن التكوين في الطريق لا يمكن أن يكون أساسا لحياة ذات قيمة إلا عند أشخاص آمنوا فعلاً بالمسيح وأدركوا حيوية متطلبات دعوة الرب وعزموا على السير حتى العماد. إن الإيمان الذي يجلب التوبة يتضمن الرغبة في الحصول على السر. فحيثما تفقد هذه التوبة يكون كل شيء زيفاً فلا تستطيع أحسن المنظمات أن تجد لها بديلاً.

ويرى يوحنا فم الذهب أنه من الأفضل ترك الطريق على أنه يحمل شخص لقباً لا ينطبق على شيء.

هل مازلتم تشكون في ألوهية المسيح. إذن أخرجوا من هذا المكان. لا تستمعوا إلى الكلمة المقدسة واشطبوا أسماءهم من

قائمة الموعوظين. ولكن إذا كنتم تؤمنون بالمسيح الله والإنسان وإذا كنتم مستتيرين عن الديانة فما سبب هذا التأخير هذه المهملة وهذا الإهمال ؟

الملحوظة الثانية : إن معنى العماد الحقيقي قد صار مشوشاً فبينما كان قبول السر في نظر هيبوليتوس "اختيارا"، يبدو من ثم أن بعض الموعوظين يظنونه حقاً مكتسباً فما أبعد تعليم ترتليانوس.

إن الأساقفة ينظرون بلا شك مقتضيات العماد ولكن جهودهم تظهر في الواقع الفكرة الخاطئة عن العماد في أذهان الكثيرين. وقد احتفظوا بالمبادئ لكن الواقع جد مختلف.

وينظر البعض إلى العماد على أنه وثيقة تأمين يحوزون عليها في اللحظة الأخيرة أي لاستخلاص أكثر مزاياها بأقل نفقة أو قضاء واجب ثقيل يخضعون له للهروب من الجحيم.

ويعلو صوت غريغوريوس النزيانزي بحق ضد هذه التصورات.

اعرف ثلاثة طرق للخلاص : طريقة العبيد وطريقة المأجورين وطريقة الأبناء.

أيها العبد خف من الضربات. أيها المأجور لا تنظر إلا للأرباح. ولكن ارتفع إلى كرامة الابن وأحبب أباك بكل احترام. اعمل الخير بسبب جمال الطاعة أبيك حتى الطاعة المجانية ولا تنس أن الجزاء هو سرور أبيك.

إن التجاوزات التي أكدها الآباء مصدرها وضع الكنيسة ذاته في العالم. فمنذ أن نالت حريتها سنة ٣١٣ والامتيازات التي اكتسبتها بعد ذلك كان يحدق بها خطر التلوث بالفكر العلماني ونسيان رسالتها بأن تكون روح العالم فتعيش حياة إنجيلية.

ورغم جهود بعض الأساقفة الرائعة يبدو أن هذه الحياة الإنجيلية أصبحت من شيمة الرهبان وحدهم، مما يدعونا إلى أن نعي أن تجديد طريق الموعوظين لن يأتي إلا بتغيير جذري في كل الجماعات المسيحية ذاتها.

النتيجة الإيجابية

ويحق لنا أن نسجل لصالح رعاة هذا العصر تنظيم الطريق في الزمن الأربعيني الذي ظنوا أنهم يستطيعون معالجة الوضع الراهن نوعاً ما.

وقد كان العالم الوثني أعطى الكنيسة كثيراً من الرجال ذوي ثقافة كلاسيكية ودراية في الإدارة والمعاملات كما أن لهم دراية في تنظيم الطقوس.

وقد رأينا كيف أن الفترة الأربعينية انتظمت بفضل الاستعداد المباشر للعماد.

ومبدئياً قد وضعت متطلبات القبول في الدراسات الدينية ثمانية أسابيع قبل الفصح وقد كانت هذه الأسابيع الطويلة إطاراً لتكوين جاد ومكثف للمرشحين للعماد، وقد حاولوا تحقيقاً مركزاً للمراحل العادية لطريق الموعوظين القديم.

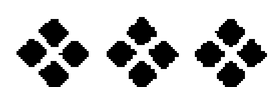
ولكن حذف طريق الموعوظين الحقيقي لصالح الطريـق في الزمن الأربعيني أدى بلا مناص إلى تدهور هذا الأخير. وهذا التطور لا يمكن تجنبه. فحيثما لا تتطابق الرموز الطقسية والسعي البشري وتفقد سندها الطبيعي ولا تعبر عن الحقيقة التي يعيشونها فلا نفهم ضرورة امتدادها في الزمن. إن الفكرة ذاتها عن السـير نحو العماد قد ضعفت تدريجياً وانتشار تعميد الأطفال قضى عليها نهائياً مع أن في البداية كانوا يطالبون الوالدين الراغبين في تعميد أطفالهما أن يتبعا المراحل التعليمية مع مجموعة المقدمين الطلب معاً (Competentes). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه قد ازداد الوعي بروحانية القرون السابقة لتعويض التساهل فـي الخدمـة الرعوية وهناك تشبيه يستخدمه الآباء كثيراً ليفسروا ضـرورة المراحل وهو حمل الجنين في بطن أمه.

إن الإشارة التي يقبلها طالب المعمودية عند الدخول إلى التعليم الذي يشهد على أول فعل إيمان، تعتبر كبدء الحمل بالتائب في أحضان الكنيسة.

والذي بدأ في الحياة ليس مستعداً بعد ليرى النور بمـيلاد العماد وقد يكون من الإجرام أن يولد إلى النـور كـائن مـازال ضعيفاً فلا يستطيع أن يعيش ولذلك طيلة فترة الطريق التي تعتبر كفترة الحمل فإن الكنيسة وهي الأم الحنونـة تغـذي بتعاليمهـا وطقوسها هذا الكائن الذي ستلده من جديد في جرن المعمودية.

وهذا الرمز يتميز بتأكيده أن مبدأ المراحل أساسـي فـي التنشئة المسيحية ولا يلزم فقط وجود تعليم جاد وزمـن اختبـار حقيقي ولكن أيضاً يجب تأمين مرحلة سابقة للكرازات وهي التي تسمح بتقديم بذور الإيمان لمن كان أهلاً لقبولها في قلبه وحياته.

ورمز الحَمَل هذا يؤكد أيضاً أن مراحل السر لابد أن تتوافق وخطوات الإيمان ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن تغني الطقوس الكنسية عن تربية حقيقية للإيمان، ومقابل ذلك فإن نضوج الإيمان يجب أن يستفيد من الكنوز التي وضعها يسوع في الليتورجيا.





الختام

لقد دققنا كثيراً في فترة الموعوظين الأكثر حيوية (القرن الثالث) ولم نلتفت إلا قليلا للفترة التي فيهـا تجمـدت المراحـل الطقسية وفقدت وظيفتها بالتدريج إلى دراسة مستفيضة وقد يفسر في جملته على أنه تطور في تثبيت قوانين التـشبين : فبعـد أن اختفى التشبين التلقائي أخذوا يلتمسون له علاجاً بإقامة من يضمن الموعوظين ويساندهم ويشجعهم. ولكن بعد أن فقدت الحياة تجمـد التطور وما زال الإطار قائماً إلى اليوم الذي فيه ينهار وقد فارقته الحيوية.

لنتراجع قليلاً إلى الوراء لنستخلص معنى الاختبار فـي طريق الموعوظين في القرون الستة الأولى.

التوبة والإيمان

إن عمل الأسرار ليس فيه شيء سحري أو آلي. وصحيح أنه عطاء من لدن الله وهبة فائقة الطبيعة مجانية ولكـن الكنيـسة التي تسلمت من الله وظيفة توزيع هذه المواهب لا تستطيع ذلـك بدون تمييز لأن ذلك يتطلب استعداداً من الإنسان الذي يتقبلها.

وفيما يخص العماد وحتى تحترم الكنيسة هذا المبدأ فقد طلبت من المرشح أن يكون إيمانه أصيلاً وحياً ولذلك لم ترض إطلاقاً منح السر دون أن تتحقق مسبقاً من صفة التوبة وحيويتها.

وكان تريد كذلك أن تعمل ما في وسعها لتهيئ تكويناً صادقاً لهذا الإيمان وكانت تريد ... ولكن لبث كل ذلك في عالم الخيال تاركاً مأساة للتضارب بين القرارات والواقع.

تكوينات المسيرة

إن الاستعداد للعماد الذي بدأ مرناً وسريعاً (القرن الأول والثاني) قد تثبت بشكل واقعي (القرن الثاني والثالث) وهذا العهد الأخير نموذجي وله مميزاته التالية:

- يسبق التبشير الدخول إلى الطريق وهو عرض الرسالة المسيحية لذوي النية الصالحة.

- لكن النية الصالحة غير كافية فالدخول إلى الطريق لا يسمح به إلا للذين خطوة خطوة التحول إلى المسيح وفقط من يؤمن يستطيع أن يقبل في الكرازات.

- إن الكرازات، وهدفها حيوي وعقائدي، تستغرق بالضرورة زمناً طويلاً.

- وخلال تكوينه البطيء يكون المرشح مرتبطاً نوعاً ما بالكنيسة بفضل توبته التي اعترفت بها لذلك يدعوه الآباء مسيحياً. ويحق له أن يتلقى بعض المراسيم الدينية فإن الله حاضر وهو الذي طوال هذا الحمل يغذي أولاده.

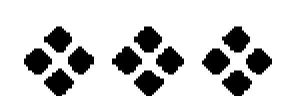
- إن طريق الموعوظين تكوِّن جماعة فيها ينمو الإيمان على مدى سنوات طويلة وإن الموعوظين لهم وقت كافٍ ليجـــدوا في الجماعة مكانهم وليعيشوا وليزدهروا فيها.

ولكن ممارسة الأسرار لن تصل إلى تحقيق ذاتها كاملـــة إلا بعد امتحان الصلاحية الذي يفتح مرحلـــة القبـــول الاحتفـــالي للأسرار.

وقد تحققت في التاريخ أصالة هذه الرؤية الرعوية تحققاً أفضل خلال القرون الثلاثة حيث كانت الكنيسة الرسولية تعمل في عالم معاد.

واليوم الذي فيه نالت الكنيسة اعترافاً رسمياً وضعت أمام مجتمع جديد ولم تستطع أن تتأقلم معه إلا قليلاً. فكـــل مـــا كـــان يتعلق بالكنيسة كان "كنسيا" وهذه البيئة المسيحية المثقلة التي كانت تتظاهر بأنها وصلت إلى نهاية المطاف، فقد عزمها الإنجيلي من الإيمان وأخفقت في دعوتها إلى التوبة ومساندة الموعوظين نحـــو الافخارستيا.

والحال أنه كان الأمر يمس كنيسة حديثة العهد أو كنيسة أنضجتها القرون يبقى ضرورياً الحفاظ علـــى الفكـــرة التقليديـــة بتكوين حلقات تعليم جادة متدرجة. وقد تختلف الأساليب وتضطر إلى مسايرة الأوضاع التاريخية الراهنة ولكنها لابـــد أن تحتـــرم مسيرة الإنسان إلى ربه كما احترمه الرب نفسه ليصل إلينا.



فهرس

الفصل الثالث:


دار شرقيات
للنشر والتوزيع